جُوزف هورس

قيمة التّاريخ

ترجمة

نسيم نصر

منشورات عويدات
بيروت - باريس

قيـمَة التاريخ

الطبعة الثالثة ١٩٨٦

مَـدخَـل

يلتقي الولدُ التاريخ ، اول مرة ، في المدرسة ، إذ يتمثل له في كتب مدرسية يجب ان يحفظها غيباً. ويستمر هذا الاستظهار ، وقتاً طويلاً ، لا يرى فيه التلميذ غير عمل ذاكرة ، تتناوله في شكل تأكيدات بجملة ثابتة لا مرونة فيها ، ولا إتاحة للفكر ان يأخذ بنصيب منها ؛ وهذا الوضع المدرسي كانت تسانده المناسبات التي يتحلق فيها الأهل ، بما توحيه من سلطة في رواية الأحداث . وبعد حين من الزمن ، تأتي ساعة يكتشف فيها وجود كتب مدرسية اخرى تختلف عن كتابه التاريخي في بعض النقاط ، ويرى ان كلاً من هذه الكتب يقدم له مختصراً بسيطاً عن مجمل من أحداث التاريخ أغنى وأوسع مما يستطيع تفكيره أن يفترض ، وأكثر مما يمكن لذاكرته ان تستوعب .

وهكذا يمر في خطر فقدانه القدرة على تحسين تفهمه

البدائي للتاريخ ، فيراه عندئذ نوعاً من سابق لوجود المؤرخ ، فهو تسلسل «وقائع[1] » لا يُعرف مصنّفها بالضبط ، مفترَض فيها أن تكون مختصرة ثابتة في كل تفاصيلها ، ومعتبرة احتياطياً الى أن يجيء مؤرخ « يكتشفها » ويصفها في نطاق الحد الأعلى من الأمانة .

ولكن كل شيء يتغير عندما نتبين ان التاريخ ليس الا حياة الناس ، وأنه لم يُصنع من مادة أخرى غير الهنيهة الحاضرة ، وان موتى الماضي كانوا أحياء مثلنا ، نحن الذين ، بعد سنين قليلة ، سنصير مثلهم الى الموت . ولكن من منا سيتبين حقيقة هذا التغير ، وما هي نسبة هذه القلة التي ستتبين ذلك ، الى الجمهور الكبير الذي لن تدركه هذه اللحظة الفارقة ؟ ولكي نتذوق التاريخ وننجح فيه ، يجب ان نعلم ، قبل كل شيء ، واجبنا في احراز اختبار بشري غني وقوي ، وهذا ما لا يتوفر إلا بعد المرور بحوادث كثيرة تفوق الحوادث التي تأملناها ، وقد مرت بممثلين فيها أو شهود لها او عليها .

اما قرأت ، في تلك القصص المتناقلة عن الماضي ، كيف

---

١ ـ ما هو « الواقع » ؟ سنحتفظ بالعودة ، في الوقت المناسب الى هذه النقطة ذات الالتباس ، ومن هنا اخذنا بالا نستعمل هذه الكلمة الا في اقل ما يمكن ، مفضلين ان نستعمل مكانها حادثة او حدثاً ، او ظاهرة .

كانت الجنية تظهر لضحيتها، أول الأمر، في شكل صبية لعوب، ثم لا تلبث أن تكبر فجأة حتى تصبح مسخاً مخيفاً ؟ هكذا التاريخ يبدو في مرحلته الثانية، وكأنه خليط مضطرب العناصر ! فلنا من غناه المتجاوز الحد ومن تعقده ما يثبّط الهم، حتى همم أولئك الذين، كانوا منذ عهد قريب يعيبون عليه أنه ليس أكثر من تمرين ذاكرة . أو ليس هو ما حسبناه، في ما مضى، تحصيلاً تحت مستوى الفكر الانساني، فاذا هو اليوم يتجاوز مستوى الفكر تجاوزاً كبيراً ؟ الخلاصة، على الأقل، تبقى هي ذاتها، إنه رفض الاهتمام به . وهل نحن في حاجة هنا، لأن نذكـّر بالعبارة التي اشتُهرت عن بول فاليري حتى أصبحت شيئاً كلاسيكياً ؛ اذ أعرب عن احتقاره هذه المسلكية المعنية بالتاريخ فقال : « اننا ما نزال، من التاريخ في نظامه التاريخي السياسي، في حالة الاعتبار النظري والمراقبة المضطربة ... التاريخ يبرر ما نريد . انه لا يُعلـّم شيئاً بدقة وحزم لأنه يشتمل على كل شيء ويقدم المثل على كل شيء . . . التاريخ أكثر الحصائل ضرراً وخطراً بين كل ما عُنيت به كيمياء الفكر ».. وهذا رجل من الصف الأول في رجال الفكر كأندريه جيد يعاني « بُعداً » عن التاريخ مدهشاً ؛ فيسميه « تعداد الحوادث » الذي يضجره « لأنه لم يجد فيه سببية غير طارئة أو وهمية » . كما أنني لا أجد من أظهر كرهاً

للتاريخ أكثر من ج. رومين إذ قال : « أينما أجلت النظر في هذا الامتداد للحوادث ، الذي يسمونه التاريخ ، تراه ، كلما ارتفع ليأخذ في رواية هذا التشابك البشري على مستوى يتــلاءم والتاريخ ، يعود الى الانطبــاع نفسه فيُمسي : تسلسلاً من الوقائع — وكلها تقريباً مقيتة لا يقبلها العقل ، وقد تحولت الى قساوة ابتدائية — ومتشابكاً من الظروف ، لا تستطيع قراءته دون نظارات خاصة ، وسلسلة من الحركات المتناقضة التي تموه سابقتها أو تلغيها ، وعلى الإجمال يمسي التاريخ فراغــاً مليئاً بالفوضى » .

وهناك الكثير مما يقال في هذه المعارضة للتاريخ ، التي تبدو وكأنها تقليد متين لثقافتنا الفرنسية . ومع هذا فالتاريــخ ، في فرنسا ، كما في كل بلد من بلاد الحضارة الاوروبية ، يؤلف جزءاً من البرامج الرسمية للتعليم . وهكذا فان الكتل البشرية عنـد خروجها من المدرسة ، تحمل زاداً للدخول في الحياة ، بمجموعة متواضعة من المعلومات التاريخية ؛ وكلما تقدم هؤلاء الداخلون ازداد كل منهم اعتقاداً بأنه صاحب الرأي المفضل في هــذا الموضوع . وفوق هذا فقد وجــد البث التلفزيوني في برامجه التثقيفية وسيلة مثمرة في ايقاظ انتباه المشاهدين ، من هــذا الجمهور الكبير المتخم من الروايات ، والمعلق أهمية جديـدة على حكايات الحوادث الماضية .

فماذا نجد ، اذن ، في هذه المسلكية التي تتمكن من فرض نفسها بنفسها ، وبثقلها الخاص ؟ وما هي هذه المادة التي يُفرض درسها على أولادنا ، ولا يمكن تحديدها لهم ؟ إن اختلافها عن سواها واضح كل الوضوح . فالرياضيات تنتهي ، في حقيقتها ، الى استدلالات يرضى عنها العقل ، والعلوم الطبيعية الى قوانين يؤيدها الاختبار ، واللغات يمكن أن نتعلمها كنظام متلاحم الأجزاء ، وكمنطق وصفي للوجود ، وإن كان علينا أن نجري تعديلات طفيفة . ولكنه ليس بين هذه الميزات المشوقة واحدة منها تلائم التاريخ . ذلك لأن التاريخ بعيد عن أن يبقى كغيره من المسلكيات منسجماً مع نفسه ، في مجرى الزمان ، فهو على العكس ، خاضع للزمان خضوع العبد ، غير حامل سوى تعليمات فريدة ، مشكوك في صحتها ، ومتغيرة . أوَ ليس من المستحسن ، إذاً ، ودرس التاريخ مفروض على الناشئة ، أن نبحث عن أسباب هذه الحالة الراهنة ، فنخلص الى طبيعة هذا التعليم في حقيقتها ، وبالتالي نخلُص الى قيمته الحقيقية ؟ هذه هي التساؤلات ، التي كانت سبباً في وضع هذا الكتيب .

1

في منابع الحيوية التاريخية

التاريخ : معرفة الماضي

لكلمة تاريخ في الفرنسية معنيان يُساء التمييز بينهما عادة . فمن جهة ، يتناول معناها مجمل الحوادث الملحوظة التي تجلت فيها حياة البشرية ، وتتجلى فيها اليوم ، وستتجلى فيها غداً . ومن جهة أخرى ، يعني معرفتنا إياه . ومع أن هذا المعنى ، منطقياً ، جاء لاحقاً بالمعنى الأول ، فانه هو الذي فرض نفسه على الناس ، أولاً ، ودخل لغاتهم . ولفظة تاريخ هي كلمة يونانية يعني جذرها فعل النظر ، أو بالأحرى ، شاهد العيان ، وما يضيفه هذا الشاهد الى تجربته الخاصة ليس إلا شهادة أخرى ، يعني شهادة من الدرجة الثانية .

والمعنى الثاني من هذين المعنيين هو الذي نعتمده هنا .

وذلك ليس لأن الأول مجرد من الفائدة . اننا لا نعني هذا أبداً، بل على العكس ، فكثيراً ما كان موضوع كلام لنا . ولم يسبق للفرنسيين أن أعاروا انتباهاً لمجرى الحوادث الملحوظة المستمر، منذ بدء هذه الانسانية التي تهرب منا بمقدار ما نردّها الى أبعاد الماضي ، الى حد القول : اننا نجهل كل شيء . وطمعاً بالوصول الى الأفضل ، يجتهد الفلاسفة واللاهوتيون أن يسبقوا في النظر الى حل المأساة ، والى تحديد معناها أو ، على الأقل ، الى الاشارة الى رمزيتها . وقد يحدث ، على حد تعبير أحدهم ، أن يفكر في التاريخ « مستقلاً عن مضمونه » ، وهذا يعني التفكير في مجرى الزمان بكل بساطة .

والشيء الآخر هو النهج الذي يمضي فيه المؤرخ ، وهذا من أسميناه « شاهداً » . ومهمته أن يرسم لوحة عن معرفتنا بتسلسل الأشياء البشرية في مجرى الزمن . واذا كان لا بد ، في سياق عمله ، من أن يتخطى التفاصيل ، وأن يحاول الأخذ بنظرة بجملة النتائج الحاصلة ، فإن هذا لا يكون إلا برصانة فائقة ، وبشرط التأكد منها ، وفي التماس المستمر بالحوادث ، ومع اختبار الصورة التي جرت فيها . وعند هذا النحو من عمل المؤرخ نريد أن نتوقف . فما الذي يعرضه للامتحان ؟ أو ماذا ينوي ، وهو يباشر مهمته ؟ وما هي الوسائل التي يستخدمها لتحقيقها ؟ وما هو حظه من بلوغ هذه الغاية ؟

لماذا يُستخدم التاريخ ؟

لقد أعطى لانغلوا وسينيوبوس ، في كتابهما « مدخل الى دروس التاريخ » ، الذي بقي وقتاً طويلاً المعتمَد الرسمي في منهج البريفيه ، لطلاب التاريخ الفرنسيين ، جدولاً من « أسئلة لا فائدة فيها » ، بينها السؤال التالي : « لماذا يُستخدم التاريخ؟ » إن في أساس مثل هذا الموقف ، دون شك ، فكرة تعني أن المعرفة ذات قيمة مطلقة ، ويجب أن تلاحق من أجل القيمة نفسها ، مستقلة عن كل سبب . فموقف كهذا يبدو لنا موقف صمود ، كما يبدو لنا موقف خوف أمام أخطار العمل ، نستطيع أن نعتمده موقفاً مميزاً الحياة الفرنسية الفكرية ، في القرن التاسع عشر ، وبشكل خاص يميز التقليد الجامعي . فقد تعرضت احدى طالبات معهد « شارت » ، بعد أن خاطرت في رسالتها ببعض المقاربات مع الوقائع المعاصرة ، للوم إنذاري ، هذا نصه : « معهد « الشارت » يا آنسة ، مدرسة غير عصرية » . فهل يبقى ، اذن ، من مجال للدهشة اذا كان هذا فهمنا التاريخ : ألوهية باردة خرساء ، وفي الغالب ، وحتى اليوم ، مستهجنة ميل الجمهور الكبير اليها ؟

وضعٌ كهذا ، يصعب الاحتفاظ به . وفيه شيء مما يمكن أن نسميه لاإنسانياً . فالجهد الذي لا هدف له هو ، في حقيقته

مغاير لطبيعة الانسان . وليس يخاف أن بعض الباحثين من ذوي الضمائر عانَوا بعض الانزعاج إذ رأوا ، في كثير من الأحيان ، صانعي تعابير يستلون من حكاية خاطفة ، من بعض الحوادث التي لم يُكشف عنها النقاب ، « دروسَ تاريخ » مشهورة ، وقد أرادوا بردة فعل طبيعية أن يُعطوا المثل على إقامة الحراسة ضد الأفكار المسبقة . غير أننا لا ننكر أن معرفة الماضي البشري لا يصلح استخدامها فوراً في عمل مهني ، كما يحدث لمبدإ في الفيزياء أو الكيمياء استخدمه هذا أو ذاك من التقنيين . ولكن لا بد من ملاءمة عادية تتناول الماضي والحاضر ، وهي مهمة تقتضي صبراً ودقة وتنتهي غالباً الى الفشل . وقد نبّه مارك بلوك الى أن التجربة علمتنا « أنه لا يمكن أن نقرر مقدماً إن كانت المكاسب التي تظهر الآن غير جديرة بالاهتمام ، لا تتحول ، في يوم ما ، معينة على الانتفاع بها ، في شكل مدهش »[1] . وإذا كان على المؤرخ أن يبرر جهده الصابر ، فانه لا يجوز له أن يكتفي باستمارة المشوّق الذي يجده مؤمّناً « الجاذب العاطفي لحكاياته ، أي تاريخه[2] » الذي ارتفعت إغراءة قراءته الى عشرة أضعاف ، لما جمع من تحسس الحقيقي من الأحداث والمولّد منها ، ومن شعور بأن كل هذا المروي

١ ـ مارك بلوك ، صناعة المؤرخ ، ١٩٤٩ .

٢ ـ ليون هالكين ، مباشرة النقد التاريخي ، ١٩٥١ .

« جرى حقاً » ؛ كما أنه لا يجوز له أن يتوقف ليذكّرنا بهـذه اللذة الذاتية ، التي يتحدث عنها ليبنيز أنها : « لذة تعلم أشياء فريدة » ، ولا يجوز له ، على الأخص ، أن ينوه بهـذا السرور الخطِر ، سرور الكبرياء الصادرة عن توهم بأنه المؤرخ الوحيـد الذي عرف بعض الاشياء . ومثل هذا المؤرخ قد يجيب : بما أن واقمنا الاكبر ، قبل كل شيء ، أن نحيا ، فعلى كل علم أن يكون لنا عوناً ، ومن زاوية النظر هـذه لا يجوز أن نُهمل العلم الذي يعلمنا ، قبل كل شيء ايضاً ، كيف غاش الكثير من الناس قبلنـــا . ومن الامثال الشائعة مثلٌ يقول : « بإلقائك نفسك في الماء تتعلم السباحة » ؛ ومثل هـــذا يقال في التمرس بالحياة : من مجرى حياتك تتعلم كيف تحيا . ولكن ، أن تراقب أعمال الناس في الماضي ، فهذا يعني أنك تضيف أعمـــاراً من الماضي الى عمرك ، وأنك تحيا أكثر من حياة واحدة .

التطبيق قبل النظرية

اذا كان الفكر البشري يجتهد، في كل مسلكية ، ان يتوصل تدريجياً الى معرفة لا تستهدف الفائدة من الموضوع المدروس ، واذا كان هذا الفكر مديناً ، بالقسم الأكبر من سلطانـه على الطبيعة ، لنقاوة بحثه ذاتها ، فان الرغبة في المعرفـة ، كمجرد رغبة ، ليست شيئاً من أساس العلم . ولكننا ، على العكس ،

نجد في كل مكان مضادات للعمل . وعلى صعيد النظر من هذه الزاوية، قال دنيس دو روجمون ، ذات يوم : « الإنسان يفكر لأن له يداً » ، ولهذا نجد ، في بدء الحساب ، الحاجة الى تعداد السكان ، والجيوش ، والغلال والقطعان ؛ كما نجـــد في بدء الهندسة الاهتمام بقياس مساحة الحقول وبرسم حدود صحيحة لها ؛ وكذلك يبدو أن الرغبة في قياس الوقت ومعرفة المستقبل هي التي حدت بالإنسان الى التصدي لما يُعرف بعلم الفلك ، في حين أن الكيمياء تولّدت من أمله اليائس في تحويل المعادن كلها الى ذهب ، في حين أن علم الحيوان ، حتى في أيامنا هذه ، لم يستطع أن يتخلص تماماً من الاهتمامات العمليـة الطبية الـتي كانت السبب في ولادة هذا العلم . وكذلك التاريـخ ، تجمّع قليلاً فقليلاً الى غايات عملية كانت سبب بروزه . وفي الواقع ، الانسان يملك ذاكرة . ففي كل لحظة يستطيـع ان يستحضـر الى ذهنه صورة الأشياء او ذكراها ، ومثلها الحوادث التي مرت وغابت ، فيعرف انها كانت موجودة ؛ وهو استحضار يجري تلقائياً وتبعاً لقوانين لم تعرف على حقيقتها ، او على العكس ، بفعل الارادة . فلا يلبث طويلاً ، اما تعهد مشروعـاً ، حتى يجد فيه مشابهات لهذه او تلك من سلاسل الاحداث الماضيـة والتي احتفظ بذكراها او التي عرفها بالسماع . ومن هذه المعرفة يُلقي ضوءاً على مقرراته ؛ وهكذا يستبعد هذه الوسيلة العملية

التي فشلت في تجربة سابقة ، لكي يعتمد تلك التي سبق أن كانت ناجحة في تجربة له او لسواه . وهكذا ايضاً ، يفصل الانسان ، عن متراكم ذكرياته، بعضاً منها يراه جديراً بأن ينقذه من النسيان ، ليضعه احتياطياً ، يجده عند الحاجة سوابق نفيسة يعتمدها عملياً ، ومثل هذا الصنيع يعتبر عمل مؤرخ ، ينتقي المساعدات على رسم الخطوط الكبرى لتهيئته المتواضعة لصناعة التاريخ .

وعلينا ألا نعتقد ان هذه المرحلة الأولى قد أهملت نهائياً . فالإنسانية ما تزال تتمسك بها اكثر من اي وقت مضى ، وهو تمسك يزداد شدة كلما تضاعفت حيوياتها واصبحت اكثر تعقيداً . فحفظ شاهد عن الماضي ومستند تاريخي ، هذا ما يفعله عدد من الناس ، كل يوم ، وهؤلاء ، على حد قول م. جوردين ، يصنعون شيئاً من التاريخ دون ان يعرفوا . ولكل مؤسسة وثائقها ، فكتّاب العدل لهم سجلاتهم ، وكل وحدة في حملة عسكرية لها دفتر سيرها اليومي تماماً كما لربان السفينة دفتر إبحاره اليومي ، وكما لكل تاجر دفتر صندوقه ، كذلك هي حقيقتنا اننا لا نستطيع ان نحيا وان نعمل ، وبعبارة أخرى ان نتقدم في الزمن الا مع حفظ تضامن حاضرنا وماضينا تضامناً وثيقاً . وبناء على هذا التضامن ، يبقى الصنيع الاسمى الذي يتناول اعداد رجل غير مستكمل ، اذا بقي ماضي هذا الرجل الحياتي مجهولاً : من معرفة الأسلاف الذين اعطوه

الحياة الى الوسط الذي وُلد فيه . لهذا يعتبر التقليد العائلي قاعدة تقوم عليها التنشئة ، فاذا فقدت كان التعويض عنها بأي شيء آخر ناقصاً ، وهكذا يكون التحدر العائلي المبدأ الأكثر وضوحاً من كل حيوية تاريخية .

وعلى هذا الأساس ، يتصدى التاريخ لكل المشاركات البشرية . إذ كيف تتمكن ، في جهل من ماضيها ، أن تتماسك في ديمومتها الزمنية ، وأن تتعرف ذاتها ولو بكلمة واحدة ، وكيف يمكن دون الاطمئنان الى الماضي أن تستجمع إرثاً جديراً بالتصدي لانتباه الناس ؟ فبالحرب ، وحدها ، ضد النسيان ، يعني بالتاريخ ، تستطيع السلالات المتتابعة ، على حد قول باسكال ، أن تجتمع في رجل يتعلم باستمرار ، ومن أجل هذا نسمي «شعوباً متوحشة» أولئك الذين يبقون فقراء بالذكريات ، فتبقى مجموعة معلوماتهم على الغالب ، في حدود بعض الأساليب التقنية ، التي لا يتوصلون الى ضمان استكمالها ، لأنهم يسيئون معرفة أصلها كل الاساءة .

وبقدر ما تتسع حلقة المسائل التي تقود المؤرخ الى مباشرة عمله ، بقدر ما تكسب هذه الحلقة من اتساع وتعقيد ، ولكن ميزتها العملية لا تضيع، لأنها ، على حد فولبينيديتو كروتشه ، قائمة في الاجابة عن هذا السؤال : « أين ، وفي أي شكل ، نرى ولادة المعرفة التاريخية الصافية ؟ » نراها في استعدادنا الراهن

لعمل نشعر معه بالحاجة ، ولكنها حاجة في ذاتنا غير محددة ومبهمة ؛ وعندئذ نواجه وضعاً نرتكز فيه في هذا العالم ومع هذا العالم ،الذي نحن جزء منه لا يتجزأ،وبقبولنا الحقيقة ،نصوغ منها النوعية أو الفرعية ، ونتوصل الى أن نرى كل ما يتعلق بها بوضوح ، وعندئذ ندخل في العمل ... فالحركة الأولى التي نحسب تاريخياً ، يعني من ذهنية التاريخ ، والحركة الثانية التي تعد عملية وخلقية ، حركتان متصلتان[1] .

تاريخ التاريخ

إذا كان الأمر كذلك ، فمن الواضح أن الانسانية في مجرى حياتها الطويلة لم يكن أمام عينيها سوى تاريخ واحد يستعيد ذاته ، ولوحة موحدة عن ماضي البشرية ، تمخض بها ، منذ الابتداء ، فكر غير متحور ، ومبني على أساس تقنية لا تتغير. وفي هذا الصدد ، قال كارل ماركس : « البشرية لا تطرح على نفسها أبداً إلا مسائل تستطيع حلها » . وكل حضارة ، وكل جيل ، يلقيان الضوء على المسائل الخاصة ، التي طرحت عليهما ، ويعتمدان تاريخهما ، أي التاريخ، كما يريانه.وتأثراً بهذا الوضع، نجد أن المؤلف التاريخي يعكس الافكار والمشاغل القائمة حين كتب وحيث وُضع مؤلفه في التاريخ ، ونرى أنه يحيلنا على

---

١ ـ التأريخية الصافية وغير الصافية ، في مجلة الماورائيات والخلقيات ، ١٩٥٠ .

ذاته أكثر مما يحيلنا على المرحلة من الزمن التي وقع عليها الاختيار كموضوع . وفي هذا المعنى قال بينيديتو كروتشه : « كل تاريخ حقيقي هو تاريخ معاصر ، يعني تاريخ الحاضر » .

اذاً ، بدلاً من أن نحدد ، أولاً ، بأسلوب سلطوي ما يجب أن يصمم المؤرخ على فعله ، مهما كانت « النية التاريخية » في مجملها ، وأن نفرض عليه طريقة مثلى قائمة في اللامحسوس ، نرى أن نتعلم في مدرسة مراقباتنا ، ونفتش ، في طريق معرفتنا بماضي البشرية ، عن المحاولات التي جرت حتى الآن ، ونستضيء بتاريخ التأريخ . وهكذا نتساءل عما اذا كنا نستطيع الوصول الى أن نجعل من مختلف الانجازات الموفقة أو غير الموفقة ، التي حصلت حتى اليوم ، خطاً تتلاحق فيه ، متجهاً بنا نحو هذه أو تلك من الاتجاهات ، وموحياً الينا بهذا الامتداد أو ذاك ؛ كما نتساءل عما إذا كنا قادرين ، في أعقاب هذا الجهد الانساني ، أن نصوغ وعوداً قاطعة أو ، على الأقل ، تعاليل شاهدة على محاولة . وعندما سئل أحد المتخصصين بفقه اللغة عما يكون هذا العلم ، أجاب : « هو هذا الذي أعمل » . ومثل هذا يقال في التاريخ انه « ما كان يفعله » المؤرخون ، اذ لا تُعرف نتائج أعمالهم إلا بالكشف عن طبيعة جهدهم كشفاً حقيقياً .

٢ | طلائع الحيوية التاريخية

هل يوجد شعوب دون تاريخ ؟

يتفاوت الناس في درجات حماسهم لمعرفة ماضيهم . ففي جوانب هذه الأرض شعوب ، رأينا أنهم يرضون عن جهلهم ماضيهم جهلاً يوشك أن يكون كلياً ، وهم يؤلفون العدد الأكثر من العالم ، ولكنهم ، من أجل هذا الجهل لا يحرزون أية أهمية في نظر الانسانية .

ولكن واقع مجتمعات الثقافة القديمة المشهورة أدعى الى الملاحظة ، لأنه يبدو غير مكترث بما تسميه الاهتمام بالماضي . ولعل أبرز من يقدم شاهداً معروفاً بهذه الحال : المجتمع الهندي . غير أننا ما نزال في حاجة الى شيء من التدقيق فنقول : نحن في حاجة الى البحث عن شكل آخر للتاريخ غير شكل

تاريخنا . وبما أننا ركزنا جهودنا ، حتى اليوم ، حول فكـرة الدولة ، فنظمنا معرفتنا بالماضي منسوبة اليها ، بقي سكان الهند غرباء عن هذه الفكرة ، لأنها لم تتجسد في مؤسساتهم بشكل يحسونها فيه . وهكذا يبدو فقدان التاريخ السياسي نتيجـة طبيعية لغياب الدولة ، وبسبب هذا الغيـاب تمسي وظائف الدولة الضرورية في أيدي غزاة غرباء،وهذا ما كان يحدث غالباً في القارة الهندية ، التي شُغلت ، من جهة أخـرى ، بالبحث عن مبادىء لحياة روحية عرفت بها ، فأشغلت ذاكرتها بمـا يعمّر هذا المنحى الروحي وما يجعله إرثاً يلوّن حضارتهم بلونه . والى جانب هذا طلعت في الهند مناهج فلسفية عُرف بها أهلها أكثر مما عرفت المنهجية الفلسفية عن الدول المعنية بالسياسة ، فكان للهند هذا الطابع الروحي الفلسفي الذي أصبح ، بالنسبـة الى سكانها ، تاريخهم المميز .

واستجابة لهذه الاهتمامات المختلفة ، أُجريت في بقاع كثيرة من الأرض محاولات في التاريخ لم تلبث طويلاً حتى صارت الى تقاليد . فيمكننا ، والحالة هذه ، أن نعتبر اقتران كل حضارة بتاريخ خاص بها ، كما قد يمكن القول ان كل مفهوم تاريخـي يحدد حضارة من نسيجه . ولكننا ، هنا ، سنقتصر في الكلام على واحد من هذه التقاليد التاريخية ، هو أعرقها كما يُظن ، وهو ، على الاخص ، المستمر حياً ، لأنه بعد أن اتخذ في أوروبا

الغربية ، بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر ، شكله الذي كان يمتد منذ زمن طويل ، امتص هذا الشكل الأوروبي الغربي العميق الجذور كل الأشكال الأخرى ، وراح يغطي جوانب الأرض حتى أوشك أن يغطيها اليوم كلها .

التاريخ في الشرق والتوراة

يجب أن نفتش عن جذور التاريخ في الشرق الأدنى ، من مصر الى كلدانيا ، وككل علم آخر ، فإن معرفة الماضي بقيت على صلة بالدين ، في هذه البلاد . واستبقاء لهذه الصلة واحتفاظاً بها ، جاء انتقاء الحوادث الجديرة بالبقاء ، في حافظة الأجيال ، يعني اختيار الغرض المعطى للتاريخ، وطبيعة التفسيرات المحفوظة والاهتمام بالبحث عن القصد والنية ، ومعنى التحرك التاريخي ، وحتى الانشاء القصصي ، كلها جاءت ، كما نجدها ، مشربة من روح الدين . ففي ذلك الوسط ، البعيد جداً بالنسبة الينـــا ، ألفت مجموعة من الأحداث ، بقيت معاصرة الأجيال ، متجاوزة في تأثيرها كل قياس : انها التوراة .

في التوراة ، نجد تاريخاً بين أشياء أخرى كثيرة . وأبرز ما يلفت الانتباه ، في هذا التاريخ ، أن مؤلفيه ، في مجـرى عملهم التأليفي الطويل ، وعلى تعددهم ، نجدهم كلهم تحت تأثير إيحاء واحد يبث الحياة في صنيعهم : إيحاء يؤكد استمـــرار

القدر الالهي في الشعب الذي اختاره . وافضل وسيلة لإعلان هذا التأكيد لا يكون بغير كتابة قصة هذا الشعب ، اذن ، بأن نجعلها تاريخاً .

في هذا المشروع التاريخي ، بقيت التوراة ، دون شك ، شرقية حتى في انتقاء الأنواع الأدبية التي اعتمدتها ، شرقية في تعبيرها ، وفي مؤاتاتها الأعجوبة ، وفي مفهومها للتدخل الإلهي المباشر ، والفريد في قلقلته مجرى الأشياء في كل لحظة ، وحتى في فقدها وتموّدها التكديس ، دون صهر ولا تخـــير يتناول الحـكايات المتناوّلة من مصدرين مختلفين . ففي التوراة طاقة فريدة تذكي نشاطها من أولها الى آخرها ، فتجعل منهـا كتاباً ذا نسيج خاص .

لقد كان حقيقة ان مشروعاً جديداً قام ، في هذا الوسط الشرقي ، مؤسساً على حجج دينية كأنها وقائـــع ، وليس على تأكيدات وأساطير ، لأن ما جاء فيه ، أكثر شبهاً بالوقائع التي جرت فعلاً ، منها بالحوادث التي أوحي بها ؛ ولكن تناقلهـــا التقليدي أعطاها شكل « الأسفار » التي ترويها التوراة .

ولقد أصبحت هذه الذهنية إيجابية لا تكذب نفسها . لأنها إن كانت تؤمن بالعجائب فذلك تحت عنوان الشاذ في عالم هو عالمنا نحن ؛ يستبعد الأعجوبة ولا يقبل إلا بما يقـره العقل . والحكاية التوراتية لا تأتي غير متناغمة : ففيها منطق تأكيدي

يتوسع ، ليقودنا من ولادة شعب الى ذروة مجده ، ومن هناك الى هذا الانحطاط السياسي حيث الرسالة الدينية لا تأخذ مزيداً من الأهمية . غير أن الزمن الذي يمر هكذا يؤدي الى تقدم .

كل هذه الملامح التي بقيت ، زمناً طويلاً ، مجهولة أو غير مفهومة ، كان يجب أن يجري تأثيرها على العالم الغربي . وتحسساً بهذا التأثير ، ومن خلال المفهوم المسيحي للتاريخ ، قام القديس اوغسطينوس بإدخال هذه الملامح في الصنيع التاريخي ادخالاً دائماً ، فكان ان استمر المؤرخون ، حتى اليوم ، لا يستطيعون التنكر لما هم مدينون به للتوراة .

التاريخ عند اليونان

ان التأثير اليوناني ، وإن كان أقل عمقاً ، كما نظن ، لم يكن كذلك في ما يتعلق بمفهومنا التاريخ من حيث استقامة خطه ومن حيث استمراره . فمن هذه الزاوية ننظر الى هوميروس ، كما قد ننظر من زوايا أخرى كثيرة ، انه كان لليونان ينبوعاً لكل علم . ففي مدرسته ، تعلم المؤرخون ان يمجدوا البطولة ، وأن يفخروا بروح القتال التي تدفع الانسان الى ان يصير ذا قيمة على كل صعيد اكثر مِن كل مَن يحيط به ، حتى انها لتدفعه الى أن يتجاوز ذاته ، وأن يضع ، على ذروة من التقدير ، النصر الذي تكسبه إياه أعماله البطولية . ولقد كان

هيرودوتوس أول المؤرخين الذين نبّهوا الى تخليد البطولات ، اذ قال في بداءة عمله التاريخي : « انا أفهم ، بكتابتي هـذا التاريخ ، الاحتفاظ بمآثر الرجال لكي لا يمحوها الزمان ، ولكي لا تبقى جلائل المآتي ومدهشاتها ، سواء أكانت يونانيـة أم بربرية ، دون تعظيم وامتداح » . فلن تنزاح هـذه النصيحة الأساسية من أمام عيني كل مؤرخ يعي مهمته . ولكن القصص التاريخي عند اليونان يأتي ، على عكسه في التوراة ، مرتبطاً بالأحداث ذاتها أكثر من ارتباطه بمعناها ، فيضع أمامـه شخصيات « المتفوقين » ، والأبطال ، وضعاً يجذب القارىء اليهم في كثير من الحالات لما يشعّ منهم من معاني الحياة ؛ والى هذه الميزة المصورة مال بلوتارك ؛ فأكسبته شهرة عظيمـة في رسم خطوط العظماء ، حتى انه وجد ، على حـد قوله ، في الاسكندر ، تحقيقاً لرغباته وذروة يجب ان تتراقى اليهـا الانسانية .

وهناك مظهر آخر لعبقرية هوميروس تناوله مؤرخون جاؤوا ، بعد هيرودوتوس ، فتوسعوا فيه توسعاً عظيماً ، نعني به « العقلانية » التي كثيراً ما أتى الكلام عليها في حينه . فقد رأينا آلهة هوميروس يتدخلون عملياً ، في شؤون البشر ، تدخلاً لا يختلف عن أساليب البشر ، مستخدمين أعضاءهم ، خاضعين للاهتمامات ذاتها والأهواء عينها. وفوق ذلك ، ينظمون حملاتهم

العسكرية تنظيماً يقلدون فيه البشر . ولكن هؤلاء عندما يشتركون فيها يستبعدون ان يكون الانسان الفاني بطلاً متفوقاً في الدفاع عن حق إلهي . فدين هوميروس ليس فيه شيء من الصوفية ، وحرب طروادة لا تشبه حملة صليبية في أي شيء . ومن جهة أخرى، نرى ان الآلهة يحدون جداً لسلطانهم في شريعة مويرا [1] ، شريعة القدر المتحكم ، القائد هذا العالم . وهكذا يبدو أن التاريخ اذا تخلص من كل خضوع لقوى فوق الطبيعة ، يستطيع أن يستكشفه العقل الانساني بحرية : اذ يتمكن من البحث عن اسباب الانتصارات أو الهزائم التي تؤلف مادته ، والتي يجب ألا تنسب الى اية قدرة أعلى من قدرة الانسان او فائدة غير فائدته . وهوذا نحن نورد ما قاله توسيديد في هذه السببية : « اننا بسبب هذه الفائدة التي نجنيها من معرفة الماضي معرفة ثابتة ، نستطيع أن نستبق الحكم في أمر الاحداث المتماثلة أو المتعادلة التي ستتولد في مستقبل القيم المشتركة في الطبيعة الانسانية » . وهكذا جاء التاريخ اليوناني بعكس ما جاء في التوراة ، فليس فيه من فكرة للمعنى القدري المحتوم في مجرى الأمور ، وبالتالي ليس من ثقل على اكتافنا في تحمل واقع الارث الماضي ، وفي فرضه على المجتمعات البشرية ، في نشأتها ، وفي نضجها أو انحطاطها ، أية فكرة تقدمية ، او على

---

١ ـ اسم لثلاث الهات عند اليونان يتحكمن في مصائر الناس. (المترجم)

الأقل حركة تقدم . وهل يمكن ان يكون ، في هذا المعنى ، ما جاء عن نيتشه في كتابه « اعتبارات غير معاصرة » ، اذ قال : « ثقافة اليوم ليست سوى ثقافة تاريخية . اذن ، بقي اليونان غرباء كلياً عن كل ثقافة تاريخية ، وهم الذين نتردد ، مع ذلك ، في ان نتهمهم باللاثقافة » .

لكن الذي كان من امر المؤرخين اليونان ، أنهم اهملوا بمجمل التاريخ البشري ليركزوا انتباههم على الحوادث ، فهم ، والحالة هذه ، واضعو أساس القصص التاريخي ، ومفسرو مضامين ما اوردوا من حوادث ، وأصحاب تقنيات مدهشة في تقدمها . فقد عرفوا ان يبحثوا عن شواهد الماضي كلها ، وعن الذكريات الشخصية ، وعن المؤلفات الأدبية ، وعن الحفريات والمستندات الوثائقية ، حتى انهم انتفعوا بالاسطورة . ومما هو جدير بالذكر ايضاً ، انهم نقدوا نقداً نهجياً الحصاد المجموع ، واجادوا صنعاً ، حتى ان بعضهم ، وعلى الأخص توسيديد وبوليب ، ظلا ، حتى ايامنا هذه ، معلمين حقيقيين في هذه المواد . وهوذا نحن نورد شاهداً مما قاله بوليب : « ان انتباه الكاتب وكذلك القارىء ، يجب ان يكون اقل اهتماماً بقصص الوقائع نفسها منه بالظروف التي سبقتها او رافقتها او لحقتها . لأننا ، ان نحن حذفنا من التاريخ درس اسباب المشاريع البشرية ، ووسائلها ، والغاية منها ، واهملنا العناية بامتحان كل منها امتحاناً يتبين معه حسن

التخلص الذي يُنتظر ، فماذا يبقى ؟ يبقى تمرين ادبي لا تعليم تاريخي ؛ وهذه لعبة فكرية كانت لتدغدغ الاذن هنيهة ،ولكن دون نتيجة للمستقبل » .

وهكذا نخلص الى التأكد من ان للتاريخ غاية نفعية تتطلب منه دقة علمية واساليب صارمة . فيجب ان نجدّ في التاريخ لنبلغ به الصدق ، لأن كل عمل نباشره بمعرفة غير صحيحة لتناول الشروط الخارجية ، ننتهي به الى الاخفاق . ومن محكات الصدق اعتماد العقل . ولكن تمييزنا بين ما يخضع للعقل وبين غير المعقول سيكون واحدة من قواعدنا في النقد ، عندما نُعنى بما لم نَرَهُ ولم نعرفه الا عن طريق الشهود . ولنصغ الى بوليب ، وهو يهزأ من هؤلاء الكتّاب الذين صوروا هنيبعل ، لقرائهم ، يقوده إله اثناء مروره بجبال الألب ، قال : « هؤلاء الكتّاب يعانون الحاجة نفسها التي يعانيها شعراء المسرح ؛ ففي الكثير من مسرحياتنا ، يحتاج الحل الى تدخل إله ، لأن مؤلفيها ينتقون الخرافات من خارج نطاق الحقيقة والعقل ، وهكذا يرى مؤرخونا انفسهم مجبرين على إظهار ابطال او آلهة لأنهم من الآخذين بمبدإ الالتزام بالحقيقة ولا بما يشبهها . فكيف ، اذن ، يمكننا ان نعطي لبداءة مبهمة نهاية معقولة ؟ » . وفي المعنى نفسه ، يقول عن هؤلاء المؤرخين الأدعياء : « وبما أنهم لا يستطيعون إيجاد حل ينهي قصتهم ... يُدخلون آلهة وأبناء آلهة في تاريخهم

الذي لا يستند الا الى الوقائع » .

وهكذا أصبح مفهوماً أن التاريخ كان يتخلص من الملحمة ، أو على الأقل ، كان يفعل ذلك نية وأسلوباً . ولكنه كان يستمد منها في اهتماماته الجمالية . ولكن توسيديد وبوليب مهما بلغا من الايجابية ، فانهما ما برحا يفهمان موضوعهما ضرباً من المأساة ، وقصصهما نوعاً من الفن . وفي حدود هذه النوعية من التفكير ، أدخلا في تاريخهما الخطب المشهورة التي وضعناها على ألسنة أشخاصهم الرئيسيين ، كما أدخلا مقطوعات من البلاغة اشتملت على عناصر وصفية لوضع ما أو على خطوط أساسية لسياسة ما . ولقد كان معظم المؤرخين اليونان ، قبلهما كما كانوا بعدهما ، دونهما من حيث الذهنية العلمية بشكل ملحوظ ، اذ راحوا ينجرّون الى هذا المنحدر ، وعبثاً سخر لوسيان نفسه من عيوب كتّاب زمانه ، في أحد كتبه « كيفية كتابة التاريخ » ، فان اهتمامه الوحيد بقي ، رغم انتقاده الغير ، إضفاء الطابع الأدبي على القصص التاريخي .

التاريخ في رومة

مع ثقتنا بأن الرومان استمادوا كثيراً من اليونان ، في ما يختص بالتاريخ ، لا ننكر عليهم اقامتهم الدليل على أصالة أثبتوا وجودها .. ولكن فكرهم المُعنى بالتاريخ والقصير

الخيال ، كان يروقه أن يذكر « وقائع » مستخلصة من مجرى الحوادث في وضوح من الحدود . وإذا أخذنا برأي م. دوميزيل، في كتاب له يلفت الانتباه ، فإن المؤرخين الرومان قد تمكنوا من ايجاد علاقات بين الاساطير الدينية والامكانات البشرية ، تلك الاساطير التي كانوا يملكونها منذ وجودهم ،والتي أعطوها مظهراً تاريخياً حقاً ، حتى أنهم جسّدوها في التاريخ ان صح التعبير ؛ بينما نرى الأمر مختلفاً عند غيرهم من الشعوب ، الذين أخرجوا الحوادث البشرية من نطاقها وحملوها الى صعيد عجيب خارج عن حدود الطبيعة . وقد عمد الرومان ، منذ مطلع وجودهم الدولي ، الى العناية بالتاريخ فأسسوا في رومة «مخازن وثائق» عهدوا بالعناية بشأنها الى مؤسسات رهبانية أسموها كليات . ومن هذه الكليات كانت تصدر اليومية – الروزنامة – المشتملة على « أيام الشؤم » و « أيام الفأل » تبعاً لما كانت تذكّرهم به تآريخ الأيام من حوادث مشؤومة أو أخرى سعيدة . وهذه كانت تقام لها أعياد رسمية حافلة .

لقد ميّز هذا الاهتمام النفعي في رومة ذهنية المؤرخين . فأفسح امتلاك الوثائق ، أولاً ، لإنشاء مسلسلات سنوية ، تعتبر مذكرة منظمة بـ « الوقائع » التي لا واصل منطقي ما بينها ، من مثل الانتصارات أو الهزائم ، والدخول في سلك القضاء ، والاحتفالات بالظاهرات المتجاوزة حدود الطبيعة أو

الدخول في الطقوس الدينية الجديدة. وبعد حين من الزمان تعلمت رومة من اليونان فن القصص التاريخي المتتابع والمفسر، وقد بقيت النية التي وجهت عمل مؤرخيه شيئاً آخر يختلف عن عمل سائر المؤرخين.

لا شك في أنهم عرفوا أن يقدموا لقرائهم مشاهد مثيرة، وخطابات بليغة، وأمثالاً نفيسة على المهارة السياسية أو العظمة الخلقية، ولكنهم لم ينضبطوا في حدود حضور مشاهدي مجرى الأحداث والأشياء. وكان التاريخ عندهم دائماً شخصية مركزية، فكانت رومة تلك الشخصية إذ إنها سبب تاريخهم نفسه. ونحن قد ورثنا عنهم الاحتفاظ بهذا النطاق السياسي الذي تعوّدنا أن نسجل فيه الحوادث. ومنذ عهدهم أصبحت كتابة التاريخ قياماً بوظيفة من وظائف الدولة، لأنه قد أعطي لكل مؤرخ أن يؤمن لشعبه عناوين نصره، وكنزه من الحكمة السياسية.

لا شك أن هذا الاهتمام النفعي استطاع أن يضر بروح البحث الحقيقية، وبرصانة النقد، وبهذا الفضول النهم نفسه، وهذا التوق الى المعرفة الذي لا بد منه لكل مؤرخ حقيقي. فأخذ القصص التاريخي التقليدي شيئاً فشيئاً ميزة مقدسة، وأصبح الابتعاد عنها غير ممكن تقريباً. ولنصغ مثلاً، الى تيت ـ ليف اذ يقول: «أما في ما يتعلق بهذا القصص التاريخي المتناول العهد السابق تأسيس رومة، العهد الذي عرفناه من الأساطير الشعرية أكثر مما عرفناه من الحركات التاريخية التي لا شك في وجودها، فانني لا أريد نفيه ولا

اثباته . فللعصور القديمة امتياز خولها خلط الأشياء الإلهية بالأشياء البشرية ، كما منحها أن تجعل تأسيس المدن أكثر جلالة واحتراماً ، بتدخل الآلهة . وإذا كان من شعب ، يستطيع أن يؤلّه أصوله وأن ينسبها الى الآلهة ، فان الشعب الروماني الذي ألّه مجده العسكري ، فأصبحت كل الأمم تقبل مختارة ادعاءه التحدر من مارس بواسطة روموليس[1] وارث عزته . وكل هذه الأساطير ، من أية زاوية نظرنا اليها ، واستناداً الى اي حكم لها او عليها ، فانني لن أضعها موضع المناقشة » .

وهكذا ، صوبت رومة كل انتباهها الى ذاتها ، فقدرت أن تدمر الشعوب واحداً بعد الآخر ، لكي تبني امبراطورية ، غير مبقية من تلك الشعوب إلا أثراً بعد عين ؛ وعملت على اهمال لغاتهم ، والتنكر لأديانهم ولأخلاقهم ، ولا سيما لماضيهم . ولكن التقليد الملحمي المأخوذ عن اليونان أخّر ، في حدود مستطاعة من فرض منطقه ، المؤرخين عن الاهتمام بغير العظماء من الناس . ونتيجة لذلك بقي التاريخ سرد وقائع ، وحكايات تحرك رؤساء الدول وقادة الشعوب ، فبقيت جماهير البشر غارقة في كدها وكدحها ، وظلت همومها اليومية يغمرها

---

١ ـ مؤسس مدينة رومة واول ملك من ملوكها ، وقائد يحب الحرب ؛ كان الارستوقراطيون يكرمونه . ويقال انه اختفى وسط عاصفة ، اثناء عرض عسكري . (المترجم)

النسيان . أما فضولنا التاريخي ، اليوم ، اذا أردا أن يعرف شيئاً عن تلك الجماهير ، وعن اشغالها وتقنياتها ، وعن مساكنها وأدواتها ، وعن « نوع حياتها » ، و « بيئاتها» ، فعليه ان يحيل سعيه على الجغرافيا البشرية ، التي لا تنفك عن استكشاف هذه المجهولات ، يعينها ، في هذا السعي ، علم الدراسات العرقيـة ، لأن مؤلفات المؤرخين لا ترضي الفضول التاريخي مثلما ترضيه النصوص القضائية ، والمحفورات الحجرية ، والكتب الأدبية ، وخاصة الحفريات الأثرية .

المسيحية و التاريخ

لقد حملت المسيحية الى الروح البشرية تغييراً عميقاً جداً ، فكان من الطبيعي ايضاً أن تغير المفهوم الذي كونته رومة عن التاريخ . فكان أن أضافت ، الى الثقافة اليونانية الرومانيـة الآخذة بالانحطاط ، ولكنها المهددة بخطر عودتها دائمـــاً ، أضافت ، أولاً ، مجموعة دروس غنية وجديدة : قصصاً تاريخياً، وحوادث ، وصوراً ، وقواعد نصح ، وحكمة التوراة . وكان من الواجب أن يُعد جدول بهذا الكنز ، وأن يُمتص شيئـــاً فشيئاً ، وأن يُدخَل في التعليم الجاري عند الشعوب المعـدّة ، آنئذ ، بأساليب التنشئة اليونانية اللاتينية . ودعت الحاجة الى عمل واسع الجوانب ، يُفترض فيه ان يتناول حلاً دائماً لمسائـل

التفاصيل ، كما يُفترض ان يتولى حذف المتناقضات الظاهرة ، فلم يتصد لهذا الجهد الصابر غير الآباء اليونان واللاتين . وخير ما نجد فيه نتيجة هذا الجهد، مؤلفات القديس اوغوسطينوس. ولعل افضل من نوّه بهذا الفضل هنري مارّو ، إذ قال : « نحن نملك ، بفضل الكتاب المقدس ، تاريخاً لأصول الانسان ، وتاريخاً للشعب المختار ، وإعداداً لمجيء المسيح وللحياة ... فيجب أن يستقيم ، أولاً ، تعليم الكتاب المقدس تعليماً متماسكاً وموحداً » . ولكن هذا لا يكفي ، والقصص التاريخي التوراتي لن يكون « اكثر من اسطورة ، اذا لم نتوصل الى كتابته في موسّع التاريخ الكوني، والى ايجاد مكان له في المسلسل الزمني المقارن للامبراطوريات »[1] .

وبعد هذا العمل، فلننظر « الى أبعاد اخرى أوسع وفترتها الثقافة الأوغسطينية للتاريخ . اننا نرى ، بشكل ما ... أن التوراة تندمج في داخل التاريخ الكوني الذي يضمها عنصراً من عناصره ؛ لكن ، من جهة أخرى ، نرى أن التعليم الذي يُستخلص منه يمثل مبدأ يتيح لنا أن نفكر في مجمل التاريخ ، والفكر ؛ كما انه يحملنا على اعطائه معنى ... وبفضل الثورة الفرنسية الكبرى ، أمسك المسيحي بخيط قيادي يتيح له أن يتمثل مجمل تاريخ العالم ، فهو يعرف ... ان العالم كله تاريخ

١ ـ هنري مارو ، القديس اوغسطينوس ونهاية الثقافة القديمة .

يبتدىء بالخليقة اي التكوين ، وسينتهي بدينونة اليوم الاخير. فالخطيئة الجدية ، وانتظار تجسيد الخلاص ، وحياة يسوع على الأرض ، وتقدم الكنيسة المنظور ، والقربان الذي يُقدم الى الله بانتظار الفردوس ، كل هذه تؤلف جوانب هذا التاريخ » .

وبعد أن أورد القديس اوغسطينوس هذه المبادىء ، لأول مرة ، أصبح المؤرخون يتناولونها دائماً . وليس من مؤرخ ، في الغرب ، يستطيع أن ينسى أو يتناسى أن التاريخ الحقيقي هو تاريخ الانسانية . وإن المؤرخين الذين تعلقوا ، في ما بعد ، تعلقاً عاطفياً بماضي أوطانهم ، عرفوا جيداً، في قرارة نفوسهم ، أن عملهم ليس الا عملاً جزئياً لا يؤلف غير القليل من ذلك المشتمل الكبير .

انواع مختلفة من التاريخ في القرون الوسطى

في هذه الذهنية الجديدة حقاً ، رُسمت الخطوط الكبرى لتطلعات تعاليل القرون الوسطى ، وفي الأسلوب التعبيري الأوغسطيني ، كتب بول اوروز وإيزيدور دي سيفيل محاولاتها الأولى ، فكانا صاحبَي الانطلاقة الاولى . ومن هنا ، تولّد عند عدد من مؤلفي التاريخ المجتزأ ، مثل غريغوار دي تور وبيد، شعور المشاركة في مؤلف أضخم من مؤلف السابقَين .

وقد كتب هذان الاخيران مقتنعَين بأنهما يقومان بواجب ، هو واجب يتجنب ترك أي فراغ ، في المعرض الذي يستمر فيه تتابع عرض الحياة البشرية . ومما لا شك فيه ان هذا الشعور بقي موضع عمل حتى عهد النهضة : القرنين الخامس والسادس عشر ، وقد تم فيه كثير من الاجتزاء التاريخي الفج والمجرد من روح النقد . ولكنه ، على علاّته ، حفظ للحيوية التاريخية استمرارها عاملة كوظيفة مجتمعية ، فاعتُرف لها بأن لا غنى عنها ، وعلى هذا الأساس كان يجري استبدال العاملين في الحقل التاريخي كضرورة لتحقيق تصويب وجهات النظر مرتبطاً بتعاقب أجيال البشر .

وهناك نوع آخر من تاريخ القرون المتوسطة أقرب الينا ، هو التاريخ التقليدي اليوناني اللاتيني المعروف بتاريخ الاشخاص . ومن أبرز متناولاته المقارنة بين القديس والبطل ، وبين خلاص النفس ومجد الانتصار الذي يحرزه المروض المنتصر . وفي مقدمة مَن عُقد لهم اكليل الظفر وأنشئت لهم طقوس الاحترام الديني ، يأتي الشهداء الذين كان المؤرخ يجتهد في أن يجمع تفاصيل شهادة كل منهم . وهكذا حصل الانتقال تدريجياً من تاريخ الأشخاص كناس مشهورين الى تاريخهم كقديسين ، وهذا نوع أدبي وأصيل حقاً عزز بقواعد ووسائل وضعت من اجله . ومضى التوسع فيه دون عائق ، معززاً بالتذوق الطبيعي للعجائب ، والاهتمام

بالتقوى ، والرغبة المحلية المتحمسة لذكرى الشفيع السماوي ، لكنه لم يمض دون إلحاق أذى بدقة التاريخ وصحته . وأقل ما يقال هنا ، اننا أمام مظهر أساسي من مظاهر حيوية تاريخ القرون الوسطى .

غير أن أحد أهم منابع هذه الحيوية ، ولعله الأهم ، قائم ، بكل بساطة ، في الحاجات الى وضعها موضع العمل . ففي مجتمع القرون الوسطى المضطرب ، كانت توجد قوى تتجاوز مدة بقائها الحياة البشرية . وهكذا كانت السلالات المسودة ، كما كانت سلطات الكنيسة القائمة في المراكز الأسقفية أو في الأديار . وفي وقت من الأوقات ، حين كان العنف مهدداً في كل مكان ، وكل حق كان موضوع مناقشة ، وحيث كان « الحق القوة » ، كانت الحاجة ملحة الى القدرة على استحداث مواد قانونية يستند اليها الانسان في اعتبار حقه قانونياً . ولما كان « الاكليريكيون » ، رجال الدين ، أكثر تعلماً من سائر الناس ، كانوا أسبقهم الى حمل إشمارات بممتلكاتهم وديونهم ، وأقدم من نظم بياناً بما هو في نصيبهم من مقاسمة . وهكذا استطاعوا أن يحتفظوا بعناية « بصكوك » تنطق بشرعية حقوقهم . فكانت جداول الملكية وسجلات الحقوق في الأديار والكنائس ، إنشاءات في شكل مذكرات عملية ، هي اليوم وثائق ثمينة للمؤرخ .

وبعد هذه اللوائح البسيطة تأتي الجداول الزمنية حيث احتفظت الأديار في مستنداتها بأثر لكل من الوقائع ذات الشأن الفاعل في حياتها ؛ وهكذا أوجدت لها تدريجياً حكاية تاريخ ، اشتملت على كثير من العناصر التي لم تلبث طويلاً حتى اصبحت تقليداً اعتمده رؤساء تلك الاديار في تعيين سياستهم . وبتوالي الأيام ، بدأ الأسياد العلمانيون ، بدورهم ، يهتمون بحفظ مذكراتهم ، فراحوا يكلفون قسساً مهيئين لهذا العمل بكتابة الجداول الزمنية الخاصة بسلالاتهم . وأشهر مثل ، لهذا النوع المعتمد تاريخاً ، « الجداول الزمنية التاريخية الفرنسية » التي أنشأها دير القديس دنيس .

ولقد سيطر هذا الاهتمام العملي ، زمناً طويلاً ، على المؤرخين . وكم استخدم محامون ، هذه الوثائق في دعاوى طارئة ، فزينوا بها ملفاتهم . وما ان انقضى عهد لويس الرابع عشر حتى أصبح درس الماضي معتمداً ، من زاوية النظر هذه بصورة خاصة ، فانتقل من اكليريكيين الى متشرعين علمانيين ، وهؤلاء سرعان ما استخدموا ، في نشاطهم التاريخي ، الذهنية التي أعدهم فيها معلموهم ، القاضية بدرس الشرائع الرومانية . فلم يتوانوا في الدفاع عن حقوق معلميهم ، آخذين بطريقة التسلسل العائلي ، والمكانة المتقدمة والتأريخ ، وبنود المعاهدات ، والوصايا ، والعقود . ومن الأخذ بهذه المعتمدات تولدت الرغبة

في إغناء الذات بالنظم التأسيسية النفيسة . وتكاثر وجود هذه الوثائق بتقدم التنشئة ، من جهة ، وبتقدم صناعة الرقوق ، وبعدها صناعة الورق من جهة أخرى . وعلى الرغم من تكاثرها ، لم يكن عددها كافياً ، وتجربة التعويض عن هذا العجز كانت كبيرة ، إذ دفعت الى صنع وثائق مزورة لملء الفراغات التي تظهر غير قانونية في الوثائق التي استُند اليها .

ان تزويرات القرون الوسطى لا تُحصى . وبعضها اكتسب شهرة واسعة ولعب دوراً هاماً في مجرى التاريخ . نذكر منها هبة رومة الكاذبة ، التي قيل إن قسطنطين ، عند سفره الى بيزنطية ، تركها للبابا ملكاً له ، كما تذكر المراسيم الكاذبة التي وُضعت حاملة تواقيع بابوية ، والتي بقيت زمناً طويلاً مصدراً أساسياً للحقوق الشرعية الكنسية . ولكن لا يجوز أن نحاكم أولئك المزورين القدامى بمقاييس اليوم ومفاهيمه . ففي نظر العقول غير المهيأة للملاحظة ، التي تعلق أهمية على أشياء قليلة الشأن وتهملها حيث يجب ان تعلّق ، أن إدخال ما يسد النقص في الوثائق ليس كذباً ، ولكنه ، على العكس ، تصحيح حقيقة عليا . ولعلنا ، اليوم ، لا نستطيع التثبت من أن ذهنيات من هذا النوع لم تعد موجودة !

التاريخ في عهد النهضة

لقد علقت الحيوية التاريخية، التي توزعت الى انواع مختلفة، زخماً جديداً في مطلع النهضة كما تلقت، في الوقت نفسه، مسلكية حقيقية. ذلك لأن تقدم الدول، وتشابك علاقاتهم المتزايدة، والاتقان المستمر في التقنية الديبلوماسية، كل هذه كانت تزيد الأمراء حاجة الى الاستعانة بخدمات رجال الأدب. فمُهدت اليهم هذه الشؤون الدولية، التي آلت الى أن صارت، في كل امارة، انشاءً تاريخياً. وهكذا أصبحت ايطاليا، وهي مهد الحضارة الجديدة، مكان المصدر لهذه الصيغة الجديدة من التاريخ. فكان أن أصبح الكثير من الفلاسفة الانسانيين، في القرنين الخامس والسادس عشر، أمثال أريتان، وبوج، ولوران فالا، وبامبو، مؤرخين، مهيئين الطريق لمعلمَين كبيرين هما: غيشاردان ومكيافيلي.

غير أن احتكاكهم بالمؤلفات القديمة أكسبهم الاهتمام بالجمال. فنظام القصص التاريخي أوجب تسلسل الأفكار، وبالتالي تسلسل الأحداث. واصبحت اللغة المستعملة أشد تماسكاً وأكثر نضجاً. حتى أن بعضهم عاد الى اللغة اللاتينية معتبراً اياها اكثر استعداداً لأن تنتظم، في كل واحدة من عباراتها، فلذ التفكير حول الفكرة الأم. وفي خارج سرد التفاصيل المستفردة المغرية

بجمالها، يتحول الفكر نحو البحث عن الأسباب .

ان العقلانية تغزو التاريخ : فهي تستبعد عنه المدهش ، والمغاير الطبيعية والعقل ، وما هو من ضروب الاعاجيب[1] .

ومن جهة ثانية ، أخذت صفة الدين تمّحي عن التاريخ . وبدأ الاهتمام بالتعليم السياسي يخلي مكانه للخلق والبناء وراح المظهر الكوني يضعف امام النظرة المركزية المعتبرة ان المؤرخ خادم الدولة . وفي الوقت نفسه استبعد الاهتمام الجمالي بالوحدة الانشائية اللجوء الى المستندات الوثائقية ، المكتوبة في لغة تخاطب مشوهة . وعوّل المؤرخ على الينابيع الأدبية ، وألقى بمواهبه عندها ، واستمد من القدامى طريقة إجمال مبررات سياسية في خطاب بدلاً من اختصارها في تعداد حسن الاختيار. واحتُقر شأن الجماهير الشعبية ، وانغلق التاريخ على نفسه في بلاطات الملوك ، فأمسى لا يعالج ، بعدئذ ، الا مشاريع العظماء ولا يستعيد غير حساباتهم .

وهذه الصيغة التي اعتُمدت طال عمرها ، وبقيت زمناً طويلاً صيغة نهائية . وكانت ايطاليا معطية القاعدة النوعية للشعوب الأوروبية . غير أن اسبانيا وفرنسا كان لهما مؤرخوهما الرسميون ، الذين ُجمعت لهم ملامح كثيرة العدد يعرفها الجميع ،

---

١ ـ النقد السيكولوجي والفلسفي لـ لوران فالا ، الذي قام على مثل الهبة الكاذبة المزعومة عن قسطنطين.

لأنها مشتركة ، وما تزال موجودة حتى اليوم في الكتب المدرسية . وهل من منكر على ميزيراي انه لعب دوراً هاماً في إعداد الوجدان القومي الفرنسي ، في كتابه « تاريخ فرنسا » ؟

ولما رجحت كفة الدعاوة ، واستمر رجحانها على كفة البحث عن مصادر الحوادث ، راحوا يطالبون المؤرخ بصفات الكاتب أولاً وبالاهتمام بالعرض التعبيري قبل أي شيء آخر . وعلى هذا الأساس اختار لويس الرابع عشر ، بوالو وراسين مؤرخين يكتبان تاريخه الشخصي . وقد ُعني راسين بهذه المهمة عناية حملته على أن يدلي برأيه في التاريخ في كتاب « مؤلفاته كاملة » ، تحت عنوان : « كيفية كتابة التاريخ». فماذا نقرأ تحت هذا العنوان ؟ اننا نقرأ قوله : « أول ما يجب على المؤرخ أن يفعل هو أن ينتقي موضوعاً جميلاً ومحبباً الى القارىء ... » واستناداً الى هذا الرأي ُجعل فولتير موضوع تكريم . وقد عمل أمراء ألمانيا مطبقين هذه القاعدة ، فكان أن أصبح الفيلسوف ليبنيز ، في هانوفر ، المؤرخ الشخصي لأسرة دي ويلف . أما في انكلترة ، حيث تغلب البرلمان نهائياً ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، على السلطة الملكية ، فقد أصبح التاريخ في خدمة حزب ، كما نستطيع أن نرى ذلك عند كلاراندون وبعده بزمن طويل عند ماكولي . ولكن هذا

القَصص التاريخي البسيط الواضح وثيق الصلة بالقضايا التأسيسية والقضائية ، ويولي إبراز رجال الحزب الكبار اهتماماً جدياً ، لم يكن ، في انكلترة ، مختلفاً اي اختلاف ، من حيث استيحاؤه التاريخ بصورة حميمة ، عما عُرف من القصص التاريخي عند شعوب القارة الأوروبية .

٣ تكوين المفهوم الحديث للتاريخ

في هذا المفهوم الحديث للتاريخ ، الذي تحول فيه كل شيء نحو الهدف السياسي ، تبدو مجموعة « الوقائع» لذهن المراقب ، كأنها موجودة بصورة نهائية خارج ذات المؤرخ ، إذ ان كلا منهـا معـروف تمام المعرفة عند الباقي ، ولا يطرح مسألة من المسائل غير مسألة سرد انشائي يكون على جانب من الفصاحة . وليس لتمرين من هذا النوع أن يقدم للذهن إلا القليل مما يغري . وهكذا نجدنا مبهوتين أمام هذا الاحتقار العميق الذي أبـداه القرن السابع عشر عندنا للتاريخ ؛ وهو احتقار ما يزال يحتفظ به أولئك الذين ورثوا المحافظة على الروح الكلاسيكية ، التي طبعت الثقافة الفرنسية بطابعها المستمـر الأثر حتى اليوم .

أوَليس في ما يرويه لنـا أغوستو ، رئيس القضـاة والخطيب المشهور ، ذاكراً كيف أضاع علومه برصـانة مالبرانش ، اذ كانت قراءة واحدة تافهة ، من حيث الحصيلة الفكريـة ، في بعض ما خلـّفه توسيديد، كافية لأن تضيّع عليه جدية الفلسفة؟ فالحادث التاريخي يبدو إذن في أقصى صيغة مصغرة الأهمية ، أمام عيني اللاهوتي والفيلسوف ، اللذين أسكرتهما الخطافة ذهنية ووضعتهما خارج الزمن ، فلا يبقى في استطاعتهما أن ينسبا أية فائدة للتاريخ الذي يفهمانه مجرد ركام من الحوادث .

تقدم التنقيب

إذاً ، كان لا بد لهذا العهد ذاته من أن يبتدىء جهداً صابراً واضحاً لا غنى عنه في تجديد التاريخ ، ويجعله جهداً يصلح أن يكون مقدمة لهذا التجديد . وقد حدث ، كما يحدث دائماً ، ان تولـّدت اعتبارات عملية . فكثرت المساجلات التي كثيراً مـا تناولت توسع التاريخ ، وكان أكثرها حدة المتناقضات الدينية التي أثارتها المنازعات بين الاصلاح البروتيستانتي ونقيضـه ، وأخيراً الحركة الدينية المنسوبة الى جانسينيوس [1]، وكل ما·

---

١ ـ صاحب تعليم ديني استخلصه من فلسفة القديس اوغسطينوس ، اساسه تحديد الحرية البشرية ابتداء من مبدأ النعمة الممنوحة لبعض الناس بالولادة ومرفوضة عن البعض الاخر . (المترجم)

من شأنه أن يؤدي الى تصحيح الاوضاع الكنسية البدائية.

وهكذا شهدت بلجيكا منذ ١٦٤٣ تتابع أعمال جماعية قام بها اليسوعيون في أنفير، تحت شكل مشاركة عقائدية اتخذت سفتها من اسم واضع فلسفتها بولاّن. ومن جراء سعي هؤلاء الى إعطاء القديسين، الذين طوبتهم الكنيسة، ملامح معينة ومميزة، عاد الى الاذهان كثير من الأساطير التي اوشكت أن تتلاشى. فكان أن أحدهم واسمه بابيبروك، أخذه الذعر من كثرة ما صادف من أكاذيب، فأمسى يشك شكاً نظامياً في جميع الأنظمة التأسيسية القديمة. وقد رد عليه مابيّون البينيديكتاني، وهو من أتباع بينوا، ومؤسس نظام حمل اسمه، اشتهر بكثرة المراجع والصبر الطويل على العمل والبحث، سنة ١٨٦١ بكتاب جاء أساساً نهائياً لنقد المستندات الوثائقية.

ولقد بدأ التاريخ، ابتداء من ذلك العهد، طريقة علمية وضعها المؤرخ لو نان دي تيّامون(١). وجاء دي كانج(٢) فانطلق

---

١ - مؤرخ فرنسي (١٦٣٧ - ١٦٩٨) ، تلميذ نساك بور روايال ، وهو مؤلف « مذكرات لخدمة التاريخ الاكليريكي للقرون الست الاولى » . (المترجم)

٢ - موسوعي فرنسي (١٦١٠ - ١٦٨٨) مؤلف في التاريخ والنقد لمتناول بيزنطية والشرق اللاتيني وقاموسين في المصطلحات وغريب الالفاظ. (المترجم)

من اعتبارات منطقية لغوية في ما ألّف ، فأغنى علم الآثار والتاريخ بكثير من المساهمات الفعالة . ثم جاء ريشار سيمون ، الذي تحمل جميع كتبه كلمة نقد في عناوينها ، وراح يطبّق التفسير على المبادىء الجديدة . وفي الوقت نفسه ، تقريباً ، كتب سبينوزا مؤلفه : المعاهدة اللاهوتية السياسية ، وهذا أبرز ما كُتب في النقد المنطقي اللغوي والتاريخي ، كما أصبح ليبنيز مدير مكتبة في هانوفر ، وذكر لنا أن رهان الحوادث أجبره على « أن يدخل في تحمل التبعات حيث لقي العدالة ، والتاريخ والشؤون السياسية كأهداف » فاستنبط لنفسه طريقة غير مكتف بتمييز الوثائق التي لا جدال في صحتها ، ووضع القواعد لتفسيرها . واستمرت هذه الحركة بحكم الحاجة اليها . ففي فرنسا ، ذهب لويس دي بوفور ، لأول مرة ، الى اخضاع تاريخ القرون الأولى لرومة ، الى امتحان، كما ذهب موراتوري في ايطاليا ، الى انجاح جهد ضخم تناول نشر النصوص .

وهكذا شاع هذا الصنيع الجديد ، في كل اوروبا ، وكأنه مهمة جيل ، ونستشهد لهذا بما قاله مارك بلوك [1] في هذا الصدد : « مهمة الجيل الذي رأى النور حين طلوع ديكارت ببحثه في المنطق . ولقد كان نقد الشاهد التاريخي مماثلاً العلم الديكارتي ، في خلقه الجديد ؛ لكن هذا النقد ، على الرغم من

١ ـ من كتابه ، مبرر التاريخ . ص ٣٧ و ٣٨ .

اسرافه في الشك ، يبقى جاداً فلا يفعل ذلك لعباً ، بل يجعل منه أداة ، ولا يريده غاية وانما يريد أن ينتهي الاعتبار العقلاني الى صيرورته اداة معرفية .

ويبدو لنا ، هنا ، أن نتساءل : لماذا لا نرى ، في مثل هذا الصنيع التاريخي ، عملاً ينتسب ، ايحائياً، الى ما كان متواصل الحدوث في العلوم الطبيعية،وفي الفيزياء ولا سيما منذ عهدنا بـ : ديكارت ، وباسكال ، ونيوتن ، وهويغنس ، وكثيرين آخرين ، أو نراه، من جهة أخرى ، عملاً ساهم ،في الاشتغال به، شخصياً، كثير من الكتّاب الذين ذكرناهم في ما تقدم من الكلام ؟

التذهيب في خلافه مع التاريخ

لقد أصبحت مهمة المؤرخ أثقل مما كانت ، من جهة، وأخف من جهة أخرى . فالمواد المتجمعة تفرض نفسها عليه ، وبما أنه صار قادراً على تحريكها ، فلم تعد جائزاً له أن يستبعدها . وثمة عمل طويل من الدرس والنقد يجب أن يسبق عمل السرد . فلن يستطيع المؤرخ ، بعد اليوم ، ان يفعل مثلما فعل الاباتي فيرتو ، فيستسلم الى ايحاء ابداعه . إذ ان شكل عمله قد تعين ومن بعده تُطرح مسألة المحتوى .

أما القصص التاريخي الميّال الى اكتساب الصفات الأدبية يتحلى بها السرد ، غير أبهٍ لحقيقة الحوادث ، فلم يعد من التاريخ

في شيء . وكذلك نشر الوثائق على طبيعة حالها يرفضه التاريخ. وفي القرن السابع عشر ،كان التاريخ يبدو ،بين هاتين الصيغتين، مهدداً بالذوبان . فالأولى كانت تعوزها أمانة العدل والوجدان، والثانية كان معنى المجرى الزمني المستمر ، مفقوداً منهـــا . وهكذا صار التاريخ الى أن لا يُحسب تاريخاً ، ولكن شيئاً من الموسوعية ، عالقاً بنقطة معينة من الماضي ، ليمتـــع القارىء بالحوادث المختارة كحوادث تستحق الوقوف عندهـــا بشغف الاطلاع . وبين هذه الصيغة وتلك ، كانت الحيوية تزوغ نظرتها عن الهدف . وإذا كان المؤرخ ، في الواقع ، يحدد الحوادث في مجرى متلاحق الاشياء ، واذا كان يبحث عن أن يتبعها بتوسع يكشف عن أسباب كل منها ونتائجه وعواقبه ، فذلك لأنــه يعوّل على أن يجعل منها عملاً نافعاً ، لا يعنينا الماضي فيه ، إلا لكي يزيد في حسن فهمنا الحاضر ويعيننا على تهيئة المستقبل .

التاريخ في القرن الثامن عشر

لقد كانت العودة الى هذه المشاغل ، الرامية الى الافادة من التاريخ ، هي التي أتاحت للقرن الثامن عشر تعليـــل مختلف النزعات الحاضرة ، ولأن ينتهي الأمر الى نهضة تاريخية. فبعض الأدمغة المحلقة كانت ما تزال مستَرهَنة بالمال عند بعض العظماء تعمل « تحت الطلب » في ما يؤول الى خير حاميها ومسترهنها،

وليبنيز نفسه يقدم مثلاً على هذا الاسترهان . أما في هذا القرن فالمؤلفون أصبحوا يكتبون لجماهير النـــاس ، ويبحثون عن خلاصات مفيدة بذاتها وليس لأنها تدعم سياسة معينة فقط . وأخيراً أصبح العمل ، في لوحة عن الماضي البشري ، عملاً مرتكزاً على صرامة علمية ينتفع به كل الناس . وكذلك اصبح جهــد المؤرخ ، البادي الحياد ، مستنداً في حقيقته الى الطمع في إنتاجية أخصب وأقوى . وهذا التغـير ، الذي يشبه كل الشبه التغير الذي جرى في الوقت نفسه في الاقتصاد السياسي ، يسجــل تقدمــاً جديداً لتأثير العلوم الفيزيائية على المسلكيات الانسانية .

إن حكم لويس الرابع عشر والجهد المضني المطلوب من الأمة حينئذ ، أثارا مناقضات سياسية احتاجت الى البحث عــن مبررات لها في التاريخ . وعلى يد فينيلون ، ومحاولة « المجالس المليّة » في عهد الوصاية (على لويس الخامس عشر عندما كان قاصراً) ، بدأت ردة فعل ارستقراطيــة سرية استمــرت كل القرن في خفائها ، لتظهر مزدهرة أثنــاء عودة الملكية الى العرش [1] . فالأحكام التي أطلقها الكونت دي بولينتيليــه كما شاء ، في ما يتعلق بأصول الفرنجة في النبلاء الفرنسيين ، أثارت الجواب الذي صاغه الاباتي ديبوس . لقد كان ان توجهت الثقافة

---

١ ـ تعرف تحت هذا الاسم السنوات بين (١٨١٤ ـ ١٨٣٠) ، وقد قسمت الى فترتين تخللها حكم المئة يوم لنابوليون في ١٨١٥ . (المترجم)

الموسوعية ، أول الأمر ، الى جماهير الناس. فمونتسكيو الذي بدأ حقوقياً باحثاً عن « روح الشرائع » ما كان في استطاعته أن يجدها في التاريخ . ولكن أليست الشريعة ، في حقيقتها ، أصدق شاهد لشعب ، في زمن معين ، أنه قادر على إعطائنا عن ذاته شهادة ؟ وهذه ، أليست وثيقة تاريخية لا عديل لها ؟

أما فولتير فهو ، دون شك ، قد منح الطريق في هذا النحو أكثر من جميع الآخرين . لأنه أكثر التأمل في الحيوية التاريخية وأراد أن يحدد طبيعتها ، فهو القائل في باب (تاريخ) من « دائرة المعارف » : « ان سرد احداث تاريخية مزعوم صدقها ، هو على العكس من الخرافة ، التي هي سرد حوادث مقدمة على أنها كاذبة ». تحديد بسبط جداً يتوازن فيه العنصران الأساسيان اللذان كانا يهددان بانفصال أحدهما عن الآخر : فـ « الوقائع » يعني الحوادث التي لاحظها شهود فنوهوا لنا بها ، و « القصص التاريخي » يعني النظام الذي أدخله الفكر البشري في هذه المظاهر ، وهو نظام يحمل ، مع البحث عن تسلسل الأسباب والنتائج ، منطقه الخاص به . ولا يجد هذا القصص توازنه إلا في نطاق كوني ، لذلك أراد فولتير أن يحرر المؤرخ من تبعيته الضيقة حيث يتحول أشباه ميسين[1] الى امراء سياسيين. يقول:

---

١ ـ روماني في عهد ارعسطوس قيصر كان يفيد من تقربه من القيصر ليشجع الادباء . (المترجم)

« تحول تاريخ اوروبا الى محضر رسمي لعقود الزواج ، والتحدرات السلالية ، والألقاب المتنازع عليها ، وكلها مما يبسط من العتمة بمقدار ما يسبب من الجفاف ، وهكذا تختنق الحوادث الكبيرة ، وتتلاشى معرفة الشرائع والأخلاق [1] ، وهذه اهداف أحق بالانتباه » .

وفي مكان آخر يقول لنا : « كنت اريد أن اكتشف ما كان يومئذ ، المجتمع البشري ، وكيف كانوا يعيشون في داخل العائلات ، وما هي الفنون التي كانت موضوع عناية ، قبل أن نستعيد ذكريات الكثير من المآسي والويلات والمعارك المجازر ، تلك هي أغراض التاريخ والمواضع المشتركة للشر البشري » .

ومثل هذه الافكار منتشر في كل مكان . فهذا دَلامبير ، في خطابه الممهد لدائرة المعارف ، يعطي ، مع المعنى التاريخي الغريب الإثبات ، نظرة قوية على غزو الانسان الكون غزواً مادياً ، وقد أصبح معلوماً كم أعار ديدرو من الاهتمام بدرس التقنيات المختلفة الى مؤلفاته . وكذلك كوندورسه ، الرجل الموسوعي ، يبدو مختصراً جهد العصر المؤذن بالانتهاء ، وهذا المختصر ليس الا عرضاً لموجز المفهوم التاريخي كما تراءى له . وفي هذا الصدد يتوجه الى قرائه قائلاً : « اذا كان ثمة من علم يسبق الى النظر في تقدم الجنس البشري في سائر مرافق حياته

١ ـ المقصود هنا طبعاً معرفة المؤسسات .

ليُدير هذا التقدم ويزيد في نشاطه ، فان التاريخ يجب ان يكون القاعدة الأولى لهذه التقدمية القائمة على اصول . ولقد سبقت الفلسفة العلوم الأخرى الى استبعاد ذلك التخوف الباطني ، الذي كان يوحي الاعتقاد بالعجز عن العثور على قواعد سلوك الا في تاريخ العصور الماضية ، وعلى حقائق إلا في درس آراء القدامى . ولكن ، ألم يكن من واجب الفلسفة ان تضم الى استبعادها المشار اليه الحكم المسبق الذي كان يرفض بكبرياء كل امثولة في الاختبار ؟... واذا كانت مراقبة أفراد الجنس البشري نافعة لعالِم الماورائيات ، ولرجل الخلقيات ، فلماذا لا لا تنفعه مراقبة المجتمعات نفعاً مماثلاً ؟ واذا كان مفيداً ان نراقب المجتمعات القائمة اليوم ، وأن ندرس علاقاتها المتبادلة ، فلماذا لا يكون الامر كذلك بالنسبة الى تعاقب المجتمعات في ممر الزمان ؟

هي ذي الكلمة الكبيرة التي ُلفظت : «مجتمع» . ومنذ أن ُنطق بها تغير التاريخ ، فبدلاً من كونه اشتغالاً بالبَلاطات والمجالس الدولية أصبح يتناول كل الناس : « حتى الآن اقتصر التاريخ السياسي على بعض الناس كما اقتصرت الفلسفة والعلوم على أن تكون تاريخاً لبعض الناس أيضاً ؛ في حين أن ركام العائلات[1] التي تعيش كلها تقريباً ، من عملها كان منسياً ... »

١ ـ انه لمما يلفت الانتباه ان نذكر بأن كلمة « عائلة » الواردة في

التاريخ اليومي

ان تغيير الهدف هو ما يؤدي حتماً الى تغيـــير الطرق : فالتاريخ كان حتى الآن حكاية كل ما يضرب الفكـر البشري بتفرده ، وبشذوذه ، لكي لا نقول بعجيبه . ومن الآن فصاعداً سيصبح معرفة اليومي من الأمور ، لأن المجتمع ، أي مجتمع كان ، تعرف حقيقته في هذه التفاصيل المتكرر وجودهـا أو حدوثها ، ففي الجزء المتواضع كثيراً ما تكمن القيمة النموذجية. ولا يجوز أن يُهمل الجزء الا حين تنتفي عنه صفة تمثيل النوعية. ولكي لا نقع في خطإ من أمرنا في هذا الصدد ، فلننظر في ما قال كوندورسيه : « في كتابة تاريخ الأشخاص نكتفي بجمع الوقائع ، ولكن في كتابة ركام البشر لا يمكن أن نستند إلا إلى مراقباتنا ؛ ولكي ننتقي ما نراقب ، ونمسك بالملامح الأساسية ، يجب أن يتوفر لنا الضوء الكاشف والنظرة المفلسفة لنستطيع أن نستخدمها على خير وجه » .

ولا نرى أن اهتماماً عميق المسابر صابر الجهد ، كالذي خصه بالتاريخ عالمان رياضيان من مستوى دالمبير أو كوندورسيه ، يمكن أن يكون عفوي المنشأ . فلقد كان القرن الثامن عشر

العبارة المروية عن فولتير ، جديدة في مكانها . وكذلـك استعمال كلمة « ركام » .

عهداً اكتسب فيه الانسان جواً غائلياً مع الارقام ، وائتلافاً مع الحركة التي قادته الى أن يقيس كل شيء : من تتابع الأزمان الى أقواس العرض الملتفة حول الارض ؛ والى أن يبحث في الاحصاءات عن دقة تزداد تناهياً يوماً بعد يوم ؛ والى أن يضع أساساً لدراسة السكان بالنسبة الى المكان ؛ كما قادته الى ان يصنع تاريخاً لركام الشعوب ، على حد قول كوندورسيه ، فلا يبقى وقفاً على حفنة من الافـــراد . وكان أن أتاح حساب الترجيحات للانسان أن يجد ، في بعض الأعمال الانسانيـــة ، الضعيفة الأثر في حد ذاتها ، والقليلة الأهمية على الرغـــم من تكرارها ، انعكاس الأخلاق لشعب في مجموعه . وهكذا جاء التقدم المعرفي الانساني ، في مختلف المسلكيات ، يساند بعضه بعضاً ، كما صار المفهوم التاريخي الى تجدد جـذري ، متأثراً باتساع المنطق الرياضي .

التاريخ الالماني والرومانطيقي

جاءت الثورة الفرنسية فأوقفت هذا الاندفاع وكان إعدام كوندورسيه[٢] ، في هذا الصدد من البحث ، عميق المدلول . فقد انقلبت شروط الحياة الفكرية في بلادنا ، وكل تقليد حطم :

---

١ ـ كان الحكم بالاعدام ينتظر كوندورسيه ، فانتحر في سجنه بتناول السم . (المترجم)

فلم يبق من تعليم منظم ، ولا جامعـــات ، ولا كليات ، ولا أكاديميات ، حتى ولا أديار ولا رهبان، وخاصة لم يبق مهيمنون باسم حماية الفكر . وكان أن جذبت السياسة اليها الكفايات الفتية ثم تلتها إغراءة السلاح ، سلاح الجندية. وقد بقيت فرنسا حوالي نصف قرن لا تعرف إعداداً منظماً للعلماء والكتّاب ، فكان من عرفوا منهم متتلمذين على نفوسهم .

وهكذا تمركز النشاط التاريخي في ألمانيا ، وقـد جرى على طبيعته نفسها تغيير عميق ، من تاريـخ عقـلاني الى تاريخ رومانطيقي .

وإذا كانت الرومانطيقية قد وجدت أرضها المختـــارة في ألمانيا ، فإن هذا لا يعني أنها كانت غريبة عن أوروبا . فقبـل الثورة الفرنسية الكبرى كان للرومانطيقية، في فرنسا، مؤذنون بها اعتُبروا طليعتها . وكانت سهولة الحياة فيها قد آلت ، كما هي الحال دائماً ، الى ظهور فئة من المتخمين في صفوف الاغنياء الذين أدركهم الملل فراحوا يحاربونه بالانتقال الى بـلد آخر . وهكذا كان الحنين الى الماضي ، هو الباعث الوحيد على هـذه الرومانطيقية ، فاذا بالقرون الوسطى تُستعاد طرازاً لأولئك الأغنياء المتداولين بالاغتراب . ومن هذا المستوى [1] استمـد

١ – كان انتصار كتاب « ريكاردوس قلب الاسد » ، عام ١٧٨٥ ، لـ « غريتري » ، مثالا وتعليلا ، في الوقت نفسه ، لكل هذا المجرى .

المسرح ، والأدب والتصوير ، فكان أن راح هذا الذوق ذوق الظاهر الجمالي يدعم المجرى الارستقراطي الذي أصبح ملموساً منذ أوائل القرن .

وما فعلته ألمانيا أنها أعادت ، الى حيّز العمل ، هذه الميول ، وقد أضفت عليها عناية واسعة . ولكنها الجارة ، التي ناءت تحت ثقل تأثير الفكر الفرنسي ، فحيت ، في ظهور أدبها القومي ، التحرر الحقيقي وأعطته مختارة ظاهر الثورة . ثم أنها جابهت عقلانية الفكر الفرنسي الشفافة ، والتي تشكو من ضيق قليل بأن أطلقت من عقالها قوى الاهواء والغرائز المظلمة. وكان هردر أول من علّم أن نرى في الحوادث نتيجة للعب مختلف عبقريات قومية ، متوزعة بين مختلف الشعوب منذ الولادة ، متماسكة في ما بينها غير منتقص منها في مجرى الأجيال . من ذلك الحين أصبح التاريخ ، قبل كل صفة أخرى ، قومياً ، إذ يقتضي دوره أن يجمع بكل تقوى أصغر جزء من التراث الشعبي ، والعبقرية القومية تستطيع أن تعبر عن ذاتها بصورة لاحترازية في أودع اغنية قروية أو في أوضع انتاج حرفي . وبكلمة ، أخذ التاريخ يغتني بالـ«فولكلور». كما ان علم الآثار وعلم المنقوشات التذكارية ومسلكيات أخرى علّمتنا ألا نستحبس في التنقيب لكي ننصرف الى المساهمة المثمرة في العمل الضخم : البحث عن الماضي الانساني . ومن أهم هذه المساهمات ، نشر

المسلسلات الزمنية بالاضافة الى الاكداس التي لا حد لها من مخزونات الوثائق الخاصة . ولم يكن عملا عفوياً أن تحمل مجموعة النصب التذكارية الالمانية التاريخية ، المؤسسة عام ١٨١٩ ، الشعار القائل : « حب الوطن مقدس يقوي الحياة » .

وفي هذه المرحلة من الزمن بالضبط ، أصبح كثير من مخزونات الوثائق الخاصة ، التي كانت سابقاً لا تمتد اليها يد ، في متناول الجميع . فالثورة الفرنسية الكبرى وفتوحات نابليون التي قلبت عروشاً وامارات ، وألغت أدياراً جمعت ، في ايدي حكومات جديدة ، كل الوثائق الموروثة عن الماضي ، وهي امست ، في معظمها ، مجردة من اية فائدة عملية ، ولكنها ، في نظر المؤرخين ، تزداد قيمة كلما كانت اوفى نظرة الى ماضي المعلومات التي لم يكتبها مؤلفوها ليوقعونا في الخطأ ، لأنهم غرباء عن اهوائنا وميولنا . وهكذا بدأ الكشف القاعدي عن مخزونات الوثائق . وهكذا أُسست ، في فرنسا ، سنة ١٨٢١ ، مدرسة النظم التأسيسية ، التي تخرّج بعثة جديدة من الباحثين كل سنة .

ولم ينصرف أي بلد ، الى هذا العمل التأليفي ، انصراف ألمانيا ، ففي مدرستها أعد أكثر مؤرخي أوروبا نفوسهم ، منذ حوالي قرن . وهي مدينة بهذا الدور للتنظيم القوي الذي استمر في جامعاتها السالمة من كل أذى على الرغم من الاضطرابات

الثورية العاصفة . هذه الجامعات الغنية بشهرتها ، والمطمئنة الى تحررها ، كانت تتجاذبها جماعات مختلفة من الالمان ، كل منها تنافس الأخرى ان تكون لها الجامعة الأكثر تألقاً ؛ وفي هذه المنافسة استطاعت الجامعات الالمانية أن تركز ، بين الاساتذة والطلاب عملاً مشتركاً مثمراً ، وعادات معممة الطريقة، ونقداً ؛ وهكذا جعلت المنافسة من ألمانيا مختبراً واسعاً تلاحمت فيه الجهود فلم يضع شيء منها .

لقد اكتشف القرن الثامن عشر القيمة النموذجية للواقع في أدق مظاهره ؛ فكانت العاطفة القومية تدفع المؤرخ الى أن يستشعر ماضي شعبه بحماس حتى لكأنه ماضيه الشخصي ، وكانت الرومانطيقية تسترفد الخيال لإعادة بناء الماضي، وعندئذ كان الباحث المؤرخ يجد الحياة تختلج في كل مخطوط قديم. واذا كان ميشليه قد عبّر عن هذا المعنى بعبارة لا تنسى ، فان مارك بلوك أضاف بحق ، أن هذا الشعور ليس خاصاً به وحده ، فقال : « هذه هي الامكانية الذهنية اللاقطة ، التي هي ، حقاً ، سيدة صفات المؤرخ . فعلينا ألا نترك انفسنا عرضة لخداع بعض البرودة الانشائية ، التي يوشك ألا يسلم منها أحد حتى أكبر كبارنا أمثال : فوستيل أو ميتلاند ، فلكل منها طريقته التي كانت خالية من الزينة أو هي قاسية ، ولكن ليس أقل من طريقة ميشليه » .

قومية التاريخ

وهكذا ، بفضل الخصائل المتتابعة التي كانت ذهنية واحدة توحى اليها بالتعليل ، تكونت مسلكية أصيلة بصورة تدريجية . فلم تعد ، كما كانت زمناً طويلاً جداً ، مجرد نوع أدبي بين أنواع كثيرة حيث كان أصحاب الأدمغة يجربون أنفسهم دون أي إعداد خاص بهذه النوعية من التأليف . ولم تعد تهدف ، كالملحمة أو الرواية ، الى اثارة عواطف القارىء أو تسليته ، أو كالخطاب الفلسفي الى تلقينه حكمة وتعليمه منطقاً ، أو كالمحاماة غايتها إقناعه بحق هذا أو ذاك من الأمراء . فكان أن انتهت هذه المسلكية الأصيلة الى حيوية فاعلة ، تتضح معالمها يوماً بعد يوم ، لتكون صفة للمشتغلين بها مهنياً أو ما يداني المهنة وموضوعاً يعلقون به ، وأخيراً صارت الى معرفة كل الماضي البشري ، معرفة تُستتبع دراستها من أجل قيمتها .

وليس من شك في أن هذا الماضي بقي ، في عيون بعض المؤرخين الرومنطيقيين ، مجزأ في النطاق القومي . ولكن ما تُحسن ملاحظته هو أن ما يبدو لنا اليوم تقلصاً كان يُحسب بحق ، في الماضي ، انفتاحاً ذهنياً ، يوم كان الكاتب يحاول ، أول مرة ، أن يعلق مهمته بحظ بعض أشخاص مستفردين كقادة جيوش أو رؤساء سياسيين ، وأن يندفع حتى تتناول نظرته حياة شعب بكامله .

فكيف ، اذن ، نفصل تطور الحيوية التاريخية عن شروط الحياة التي تكتنفها ؟ لقد كان يُعتبر تاريخا كل ما كان يجري حينئذ لحساب المسلكيات الأخرى . ولم يعد الزمن زمن «الهواة المتعلمين » العائشين من مواردهم الخاصة أو زمن المحظيين عند بعض « حماة الأدباء » . لقد كانت أوروبا كلها مسرحاً لـ«تأميم حماية رجال القلم ». فالمؤرخ ، كغيره من رجال العلم كان يدخل في خدمة الدولة فيصبح موظفاً . وفي مقابل ما يؤمّن له كمرتب معين ، كانت تطلب منه خدمات يعيّنها له ويراقب تنفيذها نظّار اداريون . وبكلمة واحدة ، كان عليه أن يعلم مادة مسجلة في برامج رسمية . ومن مطلع القرن التاسع عشر أصبح المؤرخ ، في أوروبا كلها تقريباً ، استاذاً ، فأخذت المؤثرات تفعل بقوة ، متناولة توسع المعرفة التاريخية ، وذلك نتيجة لضرورات التعليم ، وتقاليد المعلم والتلميذ ، وعبودية البرامج ، والأوامر التربوية الصادرة عن المكاتب ، ووسائل العرض ، وكل ما كان من العادات السيئة عند الأساتذة ، إذ أصبحت كلها تقتضي المعلم المؤرخ .

ولم يكن التاريخ الذي تهتم له كل دولة الا تاريخها الخاص . ومن ذلك الحين أصبح معلوماً ان التاريخ ، في القرن التاسع عشر ، قد داخلته المشاغل القومية في كل مكان . فقضية الوحدة الألمانية الحساسة التي تحطمت في القرون الوسطى ، واستعيد

بناؤها بالجهد في أيامنا هذه ، كانت مهمازاً للمؤرخين الألمـان ، الذين أوقفت أعمالهم ثوراتنا المتتابعة ، كانوا يضعون في مقدمة اهتماماتهم قضايا السياسة الداخلية ، فما كانوا يصلون الى التحلص من الروح الحزبية . وهكذا بقي التاريخ في كل مكان ، سياسياً اولاً يسيطر فيه ، على الجهد المتتابع حتى في اكثر المناطـق تقدماً في المعرفة، الاهتمام بإعداد اجيال متتابعة من التلاميذ . وكان لفرنسا ارنست لافيس قائد عمل تاريخي مشارك طلع به فرنسياً يحسب أوسع واجمل جهد للمدرسة الجامعية أتبعه بآخر للمدارس الابتدائية ، كما كان لبلجيكا هنري بيرن ، ولرومانيا جورجا ، وجميع هؤلاء توصلوا ، بسيطرتهم التاريخية الـتي لا جدال في توفرها ، الى ان يلعبوا ، الى حد ما ، دور السلطات الروحية : كل في أمته .

٤ | التاريخ « العلمي »

مواصلة المشقة

ان تقدم المسلكيات وطرقها يتم غالبـــاً بتحركات ، في ظاهرها متناقضة . ومع هذا فليس لواحدة منهـــا أن تخرب الحصائل الموروثة عن العهد السابق .

وهكذا حدث في منتصف القرن التاسع عشر . فالتاريـخ الرومانطيقي كان يقدم الشاهد على جوانب ضعفه الحقيقـي . واذا كانت العاطفة المشحونة بالغرض التي كان يعمل المؤرخون بوحيها ، واذا كانت تعنيهم ، في الغالب ، على أن « يقـــدروا بالحدس » الماضي ، فانها كانت تقودهم ايضاً الى أخطاء ثقيلة . وعلى هذا الأساس نسب العلماء الألمان ، أول الأمر الى بلدهم ، الهندسة إيماناً منهم بأن القوطية والاعتبار الفني الحامل اسمها لا

يمكن ان يكونا غير ألمانيين : هذا الجدة وحيه ، الذي فاضت به عبقرية القومية الالمانية ، وتلك للفظها المنقول . فهل نستطيع ، اذن ، ان نحصي الاخطاء التي ارتكبت وكان مصدرها هذه التسمية « عبقرية قومية » ؟

والرغبة في قصص تاريخي أكثر دقة ومراقبة وثائقية يجب ان تتولد من نقد اشد تماسكاً وأدق قياساً ، بالاستناد الى هذه الوثائق التي أصبح عدد كبير منها تحت تصرفنا ، وكأنه معين لا ينضب . ولكي نفيد منها يجب ان نتعلم كيف نستخدمها ، وكيف نقرأها ، وان نعرف لغتها ، وانشاءها ، وان ننتفع بكل الدلائل التي تشتمل عليها ، وان نتمكن من اكتشاف فخاخها . ولقد كانت نتائج هذا الاختبار تستجمع شيئاً فشيئاً في الجامعات ، توضع في مجمل متآلف الأجزاء ، ينقله المعلمون الى الطلاب ، وهكذا كانوا يعتقدون انهم يشهدون توسعاً في علم جديد .

ثم كان الزمن الذي اصبح فيه الفكر الانساني فوق كل العلوم الخاصة ، اذ قام يبني تعليل « العلم » الواسع ، ويقدم الوصف التفسيري للكون الذي كانت كل الآمال معلقة عليه . فـ « بعد اليوم لا عجيب في العالم » على حد قول بيرتيلو مخاطباً رينان في رسالة اليه ، بعد تفنيد عناصر المركب الافرازي . ومن حق التاريخ أن يأخذ مكانه في مجموعة المعارف البشرية ،

ويجب ان يرتفع الى تقديره كعلم ، لأنه معادل في القيمة العلومَ الأخرى وان اختلف عنها في الشكل . فكان يجب أن يكون علماً أو ألاّ يكون ، لأنه لم يكن صحيح المعرفة كما هي الحال في المعرفة العلمية .

كل المؤرخين كانوا يفكرون بهذا ، حتى الكبار منهم . فهذا رينان ، كان يهيء للعلوم التاريخية مكانها، بعد سنة ١٨٤٨ ، اي غب صدور كتابه « مستقبل العلم ». والى هذا عاد فوستيل دي كولانج أكثر من مرة ، فاسمعه يقول : « التاريخ علم ؛ انه لا يتخيل ، إنه يرى فقط ... وهو كغيره من العلوم قوامه الكشف عن حقيقة الوقائع ، ثم تحليلها ، ودرس التقارب في ما بينها ، والإشارة الى الروابط الواصلة ... والمؤرخ صنو الكيماوي : هذا يجد وقائعه في الاختبارات الدقيقة التي يجريها ، وذاك يبحث عن الوصول اليها بملاحظته الدقيقة ايضاً». ومختصراً يقول : « الطريقة التاريخية هي مثلها في العلوم الاخرى من علوم الملاحظة » .

الخضوع للنص

لم يعد النص شرطاً من شروط عمل المؤرخ فحسب ، بل أصبح مادة درسه ذاتها . وفي هذا المعنى اشتهر سؤال لفوستيل كولانج كان يوجهه الى طلابه ، قائلاً : «هل تملكون نصاً ؟ »وفي بداية كتاب«ما يُستفاد من درس التاريخ» ، الذي وضعه لانغلوا

وسينيوبوس،وظهر سنة ١٨٩٨،عبارة هي حقيقة ثابتة أصبحت شعاراً للمدرسة الجامعية ، في ذروة ارتفاعها ، هذا نصها : « يُكتب التاريخ بالاستناد الى وثائق » . وفي ما يلي من الفصل يشير اشارة واضحة جداً الى أن هذه الوثائق المستند اليها مكتوبة في فكر المؤلفين . وهكذا نستطيع تعريف التاريخ بأنه علم التصرف بالنصوص والافادة منها .

غير أن هذا التعلق التام تقريباً بما هو مكتوب يحمل ، اليوم ، على بعض الدهشة . فمن جهة أخرى ، عُرفت ، منذ هذا العهد ، وسائل أخرى لمعرفة الماضي. فعلما النقوش المعدنية والآثار كانا قد أحرزا انتشاراً واسعاً حسناً ، وتذوق الهندسة المعمارية في القرون الوسطى كان قد انتشر منذ عهد الاخوين بواسيريه ، في ألمانيا ، وميريمه وفيوليه ـ لو ـ دوق ،فيفرنسا. ولكن المسلكيات المختلفة لم تكن قد توصلت الى معرفة تنسيق جهودها ، إذ إن التاريخ كان وشيك التخلص من الأدب ، وإعداد المؤرخين الأدبي كان يخضعهم لدرس المخطوط . ولقد أشار م. هالفين الى أن كثيرين كانوا يُسرون من عثورهم على الفرصة التي تمكنهم من استخدام الطرق الفيزيولوجية التي كانت أساس إعدادهم طلاباً . ومما لوحظ في فرنسا أن المرور بدار المعلمين كان يعوّد عدداً من المؤرخين أن يثقوا كثيراً بتاريخ الأدب الى حد أضر باستقلال التاريخ . ففوستيل دي كولانج ،

مثلاً ، يبدو في « المدينة القديمة » أديباً كبيراً قبل اية صفة أخرى .

النقد

إذن ، سيكون التاريخ علم الوثائق . يستقرئها المؤرخ ويحللها ليستخلص منها الوقائع التي تشتمل عليها . وستجري متابعة هذا العمل بصورة نظامية طبعاً ، ولكنها مستقلة عن قيادة أية فلسفة ، لأن الوقائع « كائنة » في الوثائق وهي تفرض ذاتها بذاتها قبل كل تفسير . وقد كتب جبرائيل مونود ، سنة ١٨٧٨ ، في العدد الأول من « المجلة التاريخية » ما نصه : « ان خطر التعميات السابقة أوانها أصبح مفهوماً ، وكذلك خطر التنظيمات الواسعة السابقة كل اختبار ، والتي يزعمونها صالحة ان تتناول كل شيء ، وان تفسر كل إبهام . وقد أصبح مفهوماً أيضاً مبلغ الفائدة القليلة التي تقدمها الأبحاث التي يسوق اليها حب الاطلاع ، والتي لا تقودها اية فكرة مجملة ، ولا أي تصميم مسبق[1] . وهكذا نشعر أن التاريخ يجب أن يكون موضوع استقصاء أسباب يجري على مهل وعلى شكل منتظم ، حيث يتم التقدم

---

١ ـ يحق لنا ان نخلص الى القول ان التصميم المعني هنا يستوحى من ضرورات محض تقنية وليس من مفهوم فلسفي ، كما انه ابعد من ان يستمد من اي تنظيم . فنحن في صلب اليقينية المعروفة ايضاً بالوضعية .

تدريجياً من الخاص الى العام ، ومن التفصيل الى المجمل ؛ حيث يلقي الضوء ، تباعاً ، على كل النقاط المظلمة لكي تتوفر لوحات حية كاملة ، ولكي نستطيع أن نبني ، على مجموعات من الوقائع جرت مناقشتها ، افكاراً عامة تستدعي برهاناً أو تحقيقاً » .

هذا البرنامج أصبح رسمياً ، وهو البرنامج الذي يعلمنا تحقيقه لانغلوا وسينيوبوس . فممسل المؤرخ ، كما اوضحاه ، يقوم ، أولاً ، على جمع الوثائق . فتقنية خاصة هي البحث عن الوثائق تعلمه طريقة الوصول اليها ، كما ترشده الى جداول أسماء وفهارس المحتويات التي يجب مراجعتها عملياً .

المعالجة التاريخية تجري بوجود الوثيقة : « يجري البحث عن كيفية صنعها لكي يستطاع ، عند الحاجة ، بعثها في نصها الحرفي الأصلي ، وتعيين مصدرها ؛ وهذا ما يُعرف بـ « نقد البعث الوضعي » . وهذه الطائفة الأولى من الأبحاث المقدمة التي تتناول الكتابة ، واللغة ، والأشكال ، والمنابع ، تؤلف الصعيد الخاص من النقد الخارجي أو النقد الموسوعي . ثم يأتي دور النقد الداخلي الذي يقوم على العمل بواسطة الاستدلالات العقلية عن طريق المشابهة المستعار معظمها من السيكولوجيا العامة ، بواسطة تمثل الحالات السيكولوجية التي مر بها مؤلف الوثيقة . وبعد أن نعرف ما قاله مؤلف الوثيقة ، نتساءل : أ) ماذا أراد أن يقول ؛ ب) هل صدق ما قاله ؛ ج) هل كان ، أساساً ،

مؤمناً بما عبّر عن إيمانه به ؟ » .

إنه لمن العسير حقاً أن نعرض تفصيل وسائل النقد الداخلي، لأنها ليست تقنيات وتستمد وجودها ، بوجه عام ، من سلامة المنطق البسيط . وإليكم ما يمكن أن يكون مثلاً على ما تقدم ، نأخذه عن لانغلوا وسينيوبوس إذ يذكران انه قد تكون وثائق كثيرة ، منسوخة عن مصدر واحد ، ولكن هذه الوحدة المصدرية لا تكسبها اية سلطة على نحو التقاء الأهداف . وهذا ما يستطيع ملاحظته تماماً مبتدىء العمل على هذا الصعيد . وفوق كل هذا فلنعترف ان الاختبار يساعد ، غالباً ، المؤرخين المتمرسين طويلاً بعملهم، على تجنب الفخاخ التي يقع فيها الحديث العهد في العمل التاريخي .

وعندما ينتهي عمل النقد الداخلي ، « تبدو الوثيقة ، وقد أُعيدت الى نقطة تشبه فيها واحدة من عمليات علمية بها يستقيم كل علم موضوعي : إذ تصبح الوثيقة دراسة موضوعية ؛ لا تحتاج بعد ذلك إلا الى معالجتها طبقاً لطريقة العلوم الموضوعية » .

وهكذا تنهض المطامع المميزة للمؤرخين المعاصرين ، ولكن ليست مجردة من بعض السذاجة . غير ان خيبة الآمال لا تفارقهم . وإذا توصل التاريخ الى الدخول بين العلوم ، فيجب أن يعرف ، على الأقل ، كيف يبقى متواضعاً في آخر الصف . لأنه حقاً ، لا يملك محاضر رسمية مؤلفة من دراسات موضوعية

علمية مركزة ... فيبقى مضطراً « أن يستخلص من تقارير سيئة الوضع لا يرضى عنها اي عالم » .

وبعد أن « حددنا الوقائع الخاصة » ، يبقى « ان ننظمها في قالب علمي » وهذا هو الاجراء المعروف بـ « البناء التاريخي ». فهو الذي يقيّم العلاقات بين الوقائع ويحاول شرح تسلسلها . والحكاية التي تتألف هكذا ستكون ، من جهة أخرى ، لاشخصية . ولكي نتجنب فيها استبدال الحقيقة التي لا تستطيع العواطف التلاعب بها ، على النهج الرومانطيقي ، بوصف نرسله على هوانا ، يجب ان نمتنع عن اعطاء الشعور بـ «الملائم المعاصر» ، وأن نأخذ بعين الاعتبار ، في بحثنا التحركات العملية عند ناس الماضي ، وفي بحثنا هذه العواطف أو هذه الأهواء التي لا قدرة لنا ، البتة ، على اعادة بنائها دون ان نعانيها في ذواتنا. فالحكاية التاريخية تقتضي الدقة ، حتى نبلغ بها ، ان استطعنا ، ما يجري في الاحصاءات والمقاييس الرقمية . وهذا ما بشر به ، في شيء من لهجة التحدي ، فيردينان لو ، في مقدمة كتابه «المتأخرون من السلالة الكارولنجية » (١٨٩١) ، التي كانت تعرب عن ارادة توجيهية في ابتداء مهمته .

قال : « لقد رُسمت الطريق للسير عليها: فهي تقتضي أخذ الوثائق في سياقها المتسلسل الزمن ، وشرحها بأمانة ضميرية دون أي حذف منها ، او إضافة اليها ؛ وأن يرافق ذلك كله نقد

حيث تدعو الحاجة ، وأن يجري امتحان الآراء والنظريات التي أوحت بها تلك الوثائق للمؤرخين وللموسوعيين وأن نستبعد عنها ، بشكل مطلق ، كل ما له ميزة الاغراء الطاغي التي تتجاوز كل ما علمتنا اياه المصادر ».

« ولكن هذا النظام له عيوب ظاهرة : فالسرد يفقد اللون والحياة ؛ وانتباه القارىء يتعرض لخطر الاسترسال مع تتابع التفاصيل التي كثيراً ما تبدو وكأنها غير ذات صلة بالفكرة العامة . فهل أجرؤ على القول انني قليل التحسس لهذه العيوب ؟ فالمعرفة الحقيقية لا تُستوفى من أي عهد من التاريخ إلا بعد معرفة أدق الوقائع».

« إن التاريخ كله في أعماق التفاصيل . إذ ان الأفكار العامة فيه ، ليست غير نوع من التعبير المجدب الذي لا قيمة له ، إن هي جاءت مجردة من المعرفة العميقة بالتفاصيل . فالأفكار لا يجوز أن تسبق الدرس ، وإلا عُدت شكلاً من أشكال النقد الذاتي ، المقيت الخطر في كل شيء ؛ بل يجب ان تتسلسل جارية في شكل طبيعي ، ودون إحراج للجهود المبذولة لجعل الحكاية صحيحة دقيقة الوقائع ... فماذا يهمني أن يجيء سردي باهتاً أو عابساً اذا كان صحيحاً ، أو أن تكون مناقشاتي متعبة رتيبة إذا كانت على حق ؟ »

غايات التاريخ العلمي

عندما نقرأ لانغلوا وسينيوبوس نرى بسرعة أنهما يتمسكان بأن مفهومهما التاريخ قرار نهائي . ففي نظرهما ، ان التطور البطيء هو الذي جعل التاريخ علماً وجد، أخيراً ، صيغته ، فقالا : « منذ خمسين سنة ... استُخلصت وتألفت الصيغ العلمية للعرض التاريخي ، منسجمة مع المفهوم العام في أن غاية التاريخ ليست في أن يعجب ، ولا في أن يعطي « وصفات عملية » لسلوكه ، ولا في أن يثير ، ولكن بكل بساطة في أن ينقل معرفة » .

من ذلك الحين أصبح مستطاعاً أن نخاطر في استباق نتائج العمل الذي يقوم به المؤرخون . وهوذا نحن، بادىء ذي بدء، ننقل عن لانغلوا وسينيوبوس قولهما : « يمكن أن نفكر بمجيء يوم تصبح فيه كل الوثائق مكتشفة بفضل تنظيم العمل فتُنقى وتوضع في نظام، وتصبح فيه كل الوقائع، التي لم يعف عليها عامل الزمان، مرتّبة في كيان ـ في ذلك اليوم يتأسس التاريخ ، ولكنه لن يكون شيئاً معيناً » .

في الواقع ، يجب أولاً أن يستخدم الوثائق مؤلفو تعاليل جزئية ، وهؤلاء لا بد أن يتعلموا العمل بطريقة واحدة ، لكي يتمكن كل واحد منهم من ان يستخدم النتائج المجزأة التي

توصل اليها الآخرون ، دون اللجوء الى تحقيقات أخرى متعلقة بها . وبعد ذلك يجب على «المشتغلين الخبراء ان يكرسوا، رافضين الأبحاث الشخصية، كل وقتهم لدرس التعاليل الشخصية لكي يخلطوها بأبنية عامة » .

فإذا أدت هذه الأشغال الى استخراج خلاصات أكيدة ، عن طبيعة تطور المجتمعات وأسبابه، فنكون قد أسسنا «فلسفة تاريخ حقاً علمية » .

نتائج التاريخ العلمي

إن لهجة هذا الاعلان هي لهجة شعار ثابت ، وهكذا يجب ان نتخذها . ففي التاريخ الذي كتب هذا الاعلان ، بصيغته النهائية ، كان المفهوم التاريخي الذي عبّر عنه يفرض نفسه على العالم كله . فقد كان ، في فرنسا ، يتحكم بالحيوية التاريخية الجامعية ، مستثنياً بعض الهواة الباقين أمناء لصيغ التاريخ القديم الأدبية . وفي سنة ١٩١٠ ، عندما ساهم غوستاف مونود في فصل « تاريخ » من مجموعة كتبها ونظمها فريق من الجامعيين وأسموها « حول الطريقة في العلوم » ، لم يستطع قط في الاساس ، الا أن يعود الى تعاليم لانغلوا وسينيوبوس .

وقد رأينا أن الروح التي أوحت بهذا العمل كان من نتيجة وحيها قرن من النتائج المدهشة . وبهذه الروح توصل التاريخ

الى ان يكون بحثا قبل ان يكون وصفا . وبهذه الروح ايضاً احرز المشتغلون بالتاريخ اطمئنانهم الى ميزة هذا البحث العامة، وعلى ضوئها تأسست علاقة نظامية بين علماء كل البلدان . وهكذا شهدنا تحقيقا متواصلا مستمراً يلاحَق في كل انحاء العالم، متناولاً ماضي الانسانية ، فأفسح المجال لموسوعي متواضع ، في قرية نائية ، ان يطمئن وهو يتابع دراسة محلية ، الى انه مدعو الى المشاركة في تأليف ذي فائدة انسانية .

وكذلك تحددت الطرق . فالمعرفة وطريقة تصنيف المصادر ، ومبادىء النقد الخارجي لوثيقة ما ، والامتحان الدقيق المتناول اتجاهات فكر المؤلف ، كل هذه نقاط لم تعد قابلة التردد في امرها ابداً ، وان هناك جهداً صابراً يحرص على استكمال وسائل هذه الحيويات المختلفة . هذا الجهد الصابر الذي يبذله المؤرخ، قد غيّر مقياس عطائه استخدام الوسائل المادية القوية . فعلى صعيد التاريخ نجد علم المحافظة القائم على ترميم الوثائق ، وعلم ترتيب المكتبات ومستودعات المستندات الوثائقية ، والتمرس باستخدام الاستنساخ والتمثيل المصغر ، كل هذه تساعد على اتصال بالمصادر افضل وأدق .

وأخيراً ، نشير الى ان التنظيم الذي قامت به بعض الجامعات في شكل « مختبرات كبيرة » سهل الأبحاث المتواصلة بتقديمه ، لكل مبتدىء ، حقلا خاصا من البحوث . فكان

لألمانيا ، في هـــذا الصدد ، فضل الارشاد الى الطريق ، زمنا طويلا . واليوم ، تضع اميركا مواردها الوسيعة في خدمة هذا الاشتغال بالتاريـخ ، فتُجمّع من الأشغال مـــا تتوافر كثرته ، يوماً بعد يوم ، حتى اصبحت أكداسها مثيرة الاعجاب حقاً .

٥ ازمة التاريخ

التاريخ ازاء النقد

من غريب الأمور ، انه كلما تقدمنا بهذا الميدان ، يتراءى لنا ان الهدف يبتعد . وافضل من عبّر عن هـذا هو مارّو ، إذ قال ، ولكن في شيء من التجمّل : « في نهاية قرن من الجهود ، يجب ان نلاحظ انه لم يكن في الأمكان إنجاح المساعي في جعل التاريخ علما موضوعيا مغايراً ما عرف عنـه . اذ لا يوجد علم تاريخ ، ولكن سلسلة وجهات نظر مختلفة الأهداف يستحيل انعكاسها على الماضي » .

في الواقع ، بقي المؤرخون ، زمنا طويلا ، امنـاء للتقاليد القديمة التي كانوا هم انفسهم لا يركنون اليها ، يتابعون عملهم ويستكملون طرقهم ، ولكن دون ان يسألوا انفسهم عما تؤدي

اليه جهودهم ، وعن قيمة النتائج التي أحرزوها . فالأزمة كانت شيئاً لا مفر منه حيثما طُرح هذان السؤالان ، وكانت واقعاً محتوماً لأن الفلاسفة ما كانوا ليستطيعوا إغفال تعيين مكان هذا العلم، في الجدول العام الذي كانوا ينصّبونه مشتملاً على كل العلوم الانسانية ، وأن يطرحوا السؤال المزدوج عن الغاية والنتائج ، لو أن التاريخ كان حقاً علماً ، كما كان المؤرخون يقولون .

في ألمانيا ، أولاً ، بدأت عملية النقد . وقد كرّس عدد كثير من كبار الأدمغة أوقاتهم لهذه المهمة ، أمثال سيمّل ، وولهلم ديلسي ، ومن هو أقرب الينا ماكس ويبير . وفي الأمس القريب قام ، في فرنسا ، ريمون أرون فنشر كتابه « مدخل الى فلسفة التاريخ » ، ثم أتبعه بآخر أسماه « محاولة على حدود موضوعية التاريخ » ، سنة ١٩٣٨ ، وقد كان ذلك قبل انصرافه الى العمل السياسي . أما النحو الذي اعتمده في هذين الكتابين فنهج رسالة دوكتوراه في الفلسفة، وفي القراءة المتفردة بالصعوبة الغنية بالأفكار ، والتي يقوم الجانب الأكبر من قيمتها في الأسئلة التي تثيرها ، أكثر منه في الخلاصات التي تقترحها . فلا يستطيع مؤرخ أياً كان ، أن يطلع على هذا المؤلّف دون ان يكتسب نظرات أعمق في الطبيعة ، وفي ظروف عمله ، وفي ما هو جائز أن ينتظره المؤرخ المطالع .

التباس الوقائع

إن أول ثمرة من ثمار هذه الأفكار هي التنبّه الى الالتباس في « الواقع ». وحول هذا المعنى قال فولتير : « التاريخ سرد وقائع تعطى صفة الصدق » . واستمر المعنيون بالتاريخ بعد فولتير بزمن طويل، يقولون بأن الوقائع كائنة بذاتها، خارج ذواتنا، وليس شيء أسهل من أن نتناولها ونصفها . ولقد كان لانغلوا وسينيوبوس يفكران بمثل هذا مكتفيَين بإعطاء « وصفات » دائمة ومضمونة لاستخلاص الواقع من الوثائق حيث يكون ، في الغالب ، ملتصقاً بها التصاق المعدن بما يخالطه في منجمه .

إن مفاهيم كهذه لا تستطيع أن تتحمل امتحان فيلسوف. فنحن نعلم اليوم أن « الوقائع » لا وجود لها في عالم التاريخ اذا كنا نعني بها سلسلة من الحوادث الملحوظة ، وثيقة الاتصال في ما بينها متتابعة ، الى حد أنها تؤلف وحدة لذهننا لا ينفصل بعضها عن البعض الآخر ، ولكننا نقدر ، من جهة أخرى ، ان نعزلها فكرياً بسهولة عن حالة العالم الذي جرت فيه . ان « وقائع » كهذه يمكن وجودها في الفيزياء ، حيث نستطيع أن نكتشف مجموعات الحوادث الملحوظة الوثيقة الترابط في ما بينها حتى لنستطيع ان نعيد حدوثها مماثلا اياها في أية آونة من من الزمان ، وحيث الاسم « وقائع » يتناسب وأمثال هذه التشعبات من الأحداث. اذاً لا مشابهات في التاريخ ، على اعتبار

أنه معرفة ماضي الانسانية بالنسبة الينا .

وهنا نستعيد قولاً لروجيه ميهل[1] ، هذا نصه : « بما أنه ليس من مادة خاصة بالتاريخ ، وبما أن التاريخ ليس محدوداً في محتوى خاص ، وانما كل ماضي الانسانية ملك التاريخ ، فمن واجب المؤرخ أن لا ينسب الى الواقع التاريخي نوعيات غير تفرده الزمني ... للمؤرخ صفة متحزب لم تنكشف قط بصورة وافية : هي التأكيد غير الخالص عند تناول أقسام الزمان . ففي عمق كل مؤرخ ، كما في عمق كل عالم في علم الأحياء... بصورة وجدانية أو لاوجدانية ، شخصية متمذهبة بفلسفة برغسون ، وفلسفة برغسون مطابقة زمنياً عبقرية الجيل التي وجدت معنى التاريخ . فما يحصل في اللحظة ل + ١ هو حتماً يختلف عما يحصل في اللحظة ل . فليس من اعادة إذ ليس من رجوع يتناول المدة ، والعكس هو الكائن إذ ان التجدد مستمر » . ولهذا فإجراء الاختبار أمر غير ممكن ، ويضيف م. ميهل اضافة صائبة ، مستعيداً الصيغة التي جاء بها لانغلوا وسينيوبوس قائلاً : « التاريخ يُصنع من النصوص ، وهذا يعني أنه لا يصنع من اختبارات » . فاستعادة حصول الحادث الذي نريد درسه

---

١ ـ صاحب « حوار التاريخ والسوسيولوجيا » ، في « الدفاتر الدولية السوسيولوجية » ، طبعات السنة الثانية ١٩٤٧ المجلد الثالث ، الصفحات ١٣٨ وما يليها .

غير ممكنة ، لأننا لا نستطيع عزله عن كل ما يحيط به .

وبدلاً من أن نعتمد « الوقائع » المزعوم وجودها في حدود ذاتها خارجة عنا ، والتي يسهل تحديدها والاحتفاظ بها في التاريخ ، كما نقول ، كأنها في مخزن أو متحف ، حيث نستطيع أن نجرّها من مكانها لكي نتملّى بمراقبتها في أوقاتنا الحرة ، يجب علينا أن نتخيل مجرى المظاهر التي تضرب حواس المراقب دون انقطاع ، هذا اذا اردنا متابعة عمل المؤرخ ابتداء من أصوله . وقد علمنا الفلاسفة ما هو نصيب حيويتنا في تهذيب هذه المعدات ، وما هو العمل الصابر الذي ينتهي بنا الى بناء ما التقطناه حتى نجعل منه صورة عن العالم ، وكيف نتوصل الى المايزة بين الأهداف التي ننسب اليها شكلاً معيناً ووجوداً دائماً في خارج ذواتنا . والمؤرخ ككل الناس الآخرين خاضع لضرورة العمل .

بل من جهة أخرى ، نرى ان المؤرخ معرض ، في ما يمضي فيه من عمل لمصاعب خاصة ، يجدر بنا أن نقدم فكرة عنها ؛ لأنه يهتم بحوادث لم تعد قائمة ولا يستطيع أن يستحضرها الا بفعل ذاكرة الآخرين .

« الوقائع » نتيجة الاختيار

كل « واقع » تاريخي ينحل ، بالتفكير ، بـ « التحركات » ،

حركات أو كلمات ، وهذه الحركات وهـذه الكلمات التي هـي موضوع الشهادة ، هي التي تنقلها الينا الوثائق في آخر تحليل . هذه ذراع ، قبضتها مطبقة تشد على شيء قليل الطول ، يرسم في الهواء خطاً منحنياً يتألف من بعض عشرات من السنتيمترات ، وهوذا المشهد يتخذ تعبيره الأبسط : اغتيال هنري الرابع بخنجر رافياك . فلو أن هذا المشهد رآه فيزيائي وقاسه بالكيلوغرامات ، لبدا حادثاً أقل شأناً بكثير من ضربة فأس وجهها جزار الى ثور في مسلخ . ومن يستطيع أن يعرف عدد الثيران التي ذُبحت سنة ١٦١٠ ، والتي يورد لها التاريخ ذكراً؟ بينما يحتفظ بذكرى اغتيال هنري الرابع احتفاظاً لا يُمحى .

أسباب هذا الاختيار واضحة جداً . فان ما يعظّم اهمية مقتل هنري الرابع هي صفة الضحية الملكية ، وانعكاسات وطأة موته على حالة فرنسا السياسية ، وثقل الهوس الذي كان يرزح تحته الغادر المرتكب جريمة كهذه ، ومسألة الأهـواء الجامحة المماثلة ؛ كل هذه تنصبّ سيلاً ساخناً في عامة الشعب ، وقد كان الاعتداء الغادر شارة انطلاقه ؛ وكل هذه الأشياء ، إن لاحظنا جيداً ، لا تتناولها حواسنا ، التي تمثلنا في استطاعة ادراكنا هذا العالم ، هذا الادراك الذي لا يبعد عن أن يكون من صنعنا ؛ وان يكن نصيب الحادث الفيزيائي ، في « واقع » موت الملك ، غير مستوفى ، فانه يفرض نفسه على اختيارنا ،

وهذا تبعاً للمبادىء التي طرحناها أولاً

إذاً ، الفارق في الطريقة التي نعالج بها الحوادث الملحوظة المختلفة ، نادرين بعضها للنسيان ، والبعض الآخر لانتباه الناس، هو دائماً نتيجة اختيار . وهذا الاختيار هو الذى يفسر لنا معنى وجود الوثائق أو غيابها بصدد هذا « الواقع » او ذاك . وقد استطاع أولاً أن يستحضر شهوداً أَوّلاً ، وهذا ما يحدث في عهود الجهالة حيث يندر الرجال الجديرون بتحرير وثائق[1]. ويمكن أن يحدث مثل هذه المحدودية في المراجع عندما يكون المؤرخ الدي نعتمده قد كتب تحت وطأة أكداس الوثائق التي لم يكن له ما يكفيه من الوقت لامتحانها كلها فاستعمل منها ما يدا له « أكثر أهمية » .

انحياز معايير الاختيار

لكن ، أين نجد العلامة الفارقة بهذه الأهمية ؟ من الواضح أن هذه العلامة الفارقة تختلف بين هذا وذاك من مؤلفي الوثائق كما يحدث مثل هذا بين المؤرخين . والحوادث الملحوظة التي جمع بعضها الى البعض الآخر عمل فكري ، وجعلها « واقعاً » واحداً ، هي في نظر كل منهم شيء يلفت النظر في حدود

---

١ ـ نقدم مثلا على ذلك غريغوريوس دي تور ، فهو لنا المصدر الوحيد لتاريخ الميروفانجيان ، ولا نعرف شيئاً عن ذلك العهد غير ما اختاره وكتبه.

مؤاتاته اثبات الواقع المزعوم او اصطدامه بنظام تفسيري عرفه العالم ، أو لعله يستدعي الانتباه بمغايرته فلسفة ما . واستدعاء الانتباه يأتي نتيجة لمعاني الحوادث اكثر مما يأتي بتأثيرها ذاتياً ، ولهذا نرى محتوى كل تاريخ يختلف عن محتوى غيره من التآريخ تبعاً لفلسفة مؤلفه ، فكل واحد من المؤرخين يدخل في طريقته عناصر لها ، في نظره ، مغزاها ، بينما آخرون منهم يرفضون الإدخال والمغزى . ومؤرخو المدن القديمة في تسلسل أحداثها سنة فسنة ، وخاصة مؤرخو رومة ، راحوا يرفعون من شأن الخوارق الطبيعية التي دخلت في علمهم ، من مثل ولادة المسوخ. وفي القرون الوسطى ، كان مؤلفو المسلسلات التاريخية ، الرهبان ، يبسطون جهودهم على تناقل ما كان من أخبار القديسين والاتقياء ، بينما كان كتّاب الجيل الكبير يلتزمون في مجـــرى الأمور في القصور ، ويعلـّقون من الاهتمام ، على تنظيم موكب ، ما تدهشنا اليوم بمجرد قراءته . ولقد ترك لنا سولبيس ـ سيفير تاريخاً لحياة القديس مارتن ، كُتب في القرن الخامس ، وليس شيء أثمن لدينا من كتاب يتناول تاريخ تلك الحقبة الحاسمـة من الزمن ، حيث كان سكان غاليا ينتقلون جماعات جماعات الى المسيحية . ولكن ، ما أكبر خيبتنا عندما نصل الى آخر الكتابـه ، دون أن نجد فيه غير حكايات العجائب التي لم تخضع لأيـة مراقبة ، وقد نجد ، هنا أو هناك ، تفاصيل نادرة ، صالحة أن تكون

ذات فائدة بالنسبة الينا .

وهكذا تظهر لنا كل ذاتية المعرفة بالماضي . هذه الذاتية التي لم يكشف عنها أحد بأفضل مما فعل ريمون أرون . فالحقيقة التاريخية ، على حد تعبيره الجميل ، تعلن نفسها « ملتبسة لا يُستقى منها » . فكان على الفلاسفة أن يذكّروا بهذه الأشياء، وعندما فعلوا ذلك ، قدموا أثمن هبة للمؤرخين ، واننا لنتمنى على المؤرخين أن يعرفوا كيف يستخدمونها .

التاريخ سرداً للوقائع

كان لانغلوا وسينيوبوس يبحثان عما لا جدال فيه ، ولهذا كانا يؤمنان بـ « الواقع » . هذه الكلمة كانا يستعملانها دون انقطاع ، ودون أن يحدداها قطعاً ، فلا تطرح على فكرهما اي مسألة شكل ملحوظ ، ومن أجل هذا نراهما يتحدان في نطاق ضيق من البحث في مصادرهما الكائنة في الوثيقة الخطية ، أو نراهما يعودان الى كلمة فوستيل دي كولانج ، الى النص .

على العكس ، ان العادة الناتجة عن اعداد أدبي ، والقاضية بأن نعتمدها في المصادر الخطية ، تنتهي الى الاكتفاء بالحادث الملحوظ . ومما لا ريب فيه ان الوثيقة الخطية تستطيع ، أكثر من سواها ، أن تحتفظ بأثر الحادث ، وأن تنوه باتفاق الشهود على عدد كاف من الظروف ، وفوق كل ذلك ، تُفسح

لتأريخها . فهي بهذا، لا تثير مثلاً، أي شك في أن نابوليون مات في سانت ـ هيلين ، في الخامس من أيار سنة ١٨٢١ .

ان هناك ، ذلك الذي نستطيع ، بصورة جازمة ، ان ندعوه « واقعاً » تاريخياً ، وقد أصبح مفهوماً أننا مطمئنون الى جرّ بعض الظروف ، عند تسميتها ، الى خارج الحقيقة ، وهي ظروف نهتم لها ، بينما نحن أهملنا ، ولو مؤقتاً ، كل الظروف الأخرى[1] : كتعيين لحظة الموت حتى بالثانية ، وذكر أوضاع المحتضَر وحركاته ، في وصف دقيق مع ذكر ما يحيط به ، الخ .

ومن الواضح أن المؤرخ ، اذا اضطر الى تكديس كل هذه الاشارات ، فانه يستطيع اقامة تتابع متلاحق في ما بينها . وهو بالجهد يتجرأ على استعمال المعلومات عن السبب ، والإجراء الذي سلسل الحوادث الملحوظة لأن هذه المعلومات تتفلت من اختبار الحواس ، هذه الحواس التي لا تطلق على الشاهد ، كما رأينا ذلك سابقاً ، إلا تحركات وكلمات .

وبما ان المؤرخ لا يجرؤ على التماسك في تتابع متلاحق الأجزاء ، فانه لا يقوى على الارتفاع الى « القصص التاريخي » ، حتى أنه لا يستطيع أن ينتقي من الوقائع الموصوفة ، لأنه كثيراً

١ ـ أما وقد حددنا هكذا تعريفنا الواقع ، فاننا لن نتردد ، بعد هذا التعريف ، من استعمال هذا التعبير بصورة عادية .

ما يحدث أن يكون بعضها ، أقل فائدة من غيره، ولكنه أكثر قرباً من التعيين الزمني وأوفر دقة من ذلك الغير ، ومع انه أثقل عواقب فلا يُستبعد بل يبقى فارضاً وجوده أكثر من سواه . وعندنا اليوم مدرسة ، أشهر ممثليها لوسيان فيفر ، مدرسة بكاملها تعيب على التاريخ، المؤلّف على هذا النحو ، أن يكون مجرد « سرد » ، تحول كلياً الى عبث استُعرضت فيه مشاهد لا فائدة منها ، واكتفي فيه بعلم النصوص بدلاً من تقديم العون لتعرّف الانسان بمعرفة ماضيه .

وهكذا نرى ان شروط العمل التاريخي تفتح الباب على هذا الخطر . وبما ان هذا العمل اصبح ادارة عامة حقيقية ، بحكم تنظيمه خدمة عامة ، فقد وقع في شرك المأخذ الأكبر على كل ادارة : نعني مأخذ الرتابة التي بفضلها يصبح العمل المتابَع ذاته نهاية لذاته .

المصادر التاريخية غير الادبية

وهناك ، خارج نطاق العاملين في التاريخ ، باحثون آخرون لا يفكرون في غير تقدم مسلكيتهم الخاصة، يشقّون تدريجياً، طرقاً جديدة ويوسّعون حقل الأبحاث في ماضي الانسانية توسيعاً لا يُحدّ .

عندنا ، اليوم ، عن الانسان شواهد أخرى غير النصوص ؛

وعصور ما قبل التاريخ أخذت على عهدتها أن تعلّمنا ذلك ، إذ نحن منها أمام خليط من كل المعارف التي استطاعت جمعها ، متجاوزة كل وثيقة مخطوطة ، مفسحة صعيدها حتى الى حدود العصور الحجرية . ولنا ، ايضاً ، في علم الآثار وعلم العرقية معين كبير ؛ فروح كل حضارة يُستجلى حقيقة من أدواته باخلاص يكبر بنسبة ما يقل اهتمامه بالمسؤولية . ومفهوم الوثيقة يمكن أن نجده في أشياء كثيرة . فهذه المشاهد لا بد لها من أن تحمل طابع السكان الذين كيّفوا وجودها . وكم من مرة استعان المؤرخون بما تركه الجغرافيون من وصف يعبّر عن مشهد طبيعي في هذه البلاد أو تلك ، فترسّموا من خلاله الأوضاع المجتمعية التي تلقي ضوءاً على المؤسسات والحوادث الملحوظة ، التي كان ، حتى ذلك التاريخ ، قد أُسيء فهمها . فهؤلاء الجغرافيون هم ، بصورة خاصة ، الذين أحسنوا فهم الطريق الى حل مسألة توزيع الأراضي وتصنيفها بين أراض مفتوحة أو مقفلة بسياجات .

وفي ذات يوم من الأيام ، سأل عالم انكليزي ، من المبتدئين بدرس هذه المسألة ، فوستيل دي كولانج ، إن كان قد صادف ، في مجرى أشغاله ، شيئاً من مثل ذلك . فرد المؤرخ الكبير ، الذي كان قد أقام زمناً طويلاً في مقاطعة ألزاس ، بجواب سبي ، في حين أن الألزاس تصلح ان تكون نموذجاً لـ «الاراضي

المفتوحة » . إذن لم يعد ممكناً ، بعد الآن ، ان يجهل مؤرخ الحقيقة المجتمعية التي تحيط بـه ، وان النصوص ليست كل شيء يحتاجه .

ومع ان التقدم في العلوم المادية أقل حاجة الى مثل هذه الخدمات ، فانها لم تتخلّ عن ان تنظر الى هـذا او ذاك من المواضيع المحسوسة كأنهـا وثيقة . ولقد أصبح استخدام الميكروفيلم يختصر كثيراً من الوقت في مراجعة النصوص . والتصوير الجوي ، على حـد قول الأب بواديربار ، يكتشف على الأرض آثار بشرية لم يتمكن من التقاطها التصوير السطحي . كما ان الدراسة الفيزيو كيماوية تتيح لنا اكتشاف اعمار الفخاريات ، وان نعيّن ما يحايلها (كما هي الحال على شواطىء البحر الميت) ، وأن نحدد ، هناك ، المنجم الذي استُخرجت منه تلك المعادن وان نخلص الى التنويه بهذا أو ذاك من المجاري التجارية . وقد قدّم آمـار امثلة أضاف اليها انه من السهل جداً مضاعفة هذه الاتاحات .

وفي ما هو خـارج الوثائق المادية ، نجد أن علوم الانسان تعرف ان تقدم شواهد تعين على درس الماضي . فدرس وثائق لغة وانتقالها من بلد الى آخر ، وتطورها ، وعلومها ، ولا سيا علم معاني مختلف تعابيرها ، ودرس الدخيل عليهـا من اللغات الأجنبية ، كل هذا يقدم لنا دلائل دقيقة على هذه أو تلك من

حالات تفكير الأجيال السالفة . ولقد سبق فيكو ، منـــذ أوائل القرن السابع عشر ، الى وجهة النظر هذه ، فأظهر ، عن طريق دراسته اناشيد ملحمة هوميروس ، كيف يُستعان بالملحمة لخدمة التاريخ . وهكذا اصبح التقدم مستطاعاً اكثر فأكثر ، فاذا بنا ، اليوم ، نرى امتحان اسماء الاماكن يؤدي الى افتراضات مفيدة في ما يتعلق باحتلال ارض وسكناها.

ولنا من علم السوسيولوجيا معين في تفسير النصوص . فهي علم يوجه الأبحاث نحو المؤسسات والأخلاق حيث يعثر المؤرخ على مدلول وفير من الحوادث الملحوظة . وفوق ذلك، فهو يساعد على تمييز المسائل الجديرة بالاهتمام لحقيقتها، تلك المسائل المتخبطة في أعماق معارك الاحزاب السياسية ، كما يساعد ، اخيراً ، على ان نجد ، في الطوارىء الخاصة ذات الأشكال الـتي لا تحصى ، والتي يغلب عليها ان تكون مفاجئة ، مجرى بعض التطورات المجتمعية البسيطة نسبياً ولكنها تتكرر في نظاميـــة هي في حقيقتها اكبر مما يُظن بها اولاً .

مع ذلك ، فلكي نحتفظ لهذا التوازن المختلف عليه دائماً، بمكانه بين التأكيدات العامة والخاصة ، ولكي نحول دون جعلنا التاريخ لعبة آلية بسيطة ، جاء التقدم السيكولوجي يذكّرنا بالأهمية الأساسية لدور «كل» اشخاص البشرية الذين لا يجوز ان يلغى دور احدهم إلغاء كلياً . والماضي يسيطر على ردود فعل

كل فرد في مجتمعه سيطرة تكبر بمقدار ما يكون الفرد بعيداً عن الشهرة . وقد يحدث ان يكون تعمّد التجاهل ، من قبل بعض السياسات ، خطأً يرتكب مغايراً السيكولوجيا ؛ من مثل ذلك ، الخطأ الذي ارتكبه نابوليون عندما تجاهل الخلق الاسباني . ولكن السيكولوجيا الجماعية لا يمكن أن تبنى الا على السيكولوجيا الفردية ؛ ولذلك فليس من المبالغة في شيء إن نحن قلنا إن اكتشاف الاطمئنان الجزئي والطرق الخاضعة لمؤشرات الضمير قد غيرت شروط العمل التاريخي ، وإن الاشتغال بالتاريخ ، ابتداء من فرويد وكتابته علماً ، قد أصبحا شيئاً غير الذي كان من قبل .

كثير من العلوم الانسانية الاخرى قد ساهم في التوصل الى نتائج مماثلة . وانه لمن الصعب ان نسميها كلها . فهل يمكن ،مع هذا ، أن ننسى تعداد علمَي الحقوق والاقتصاد وما يمكن أن يسمها فيه ؟ انهما ، بعد ان تحمّلا إهمال المؤرخين إياهما ، زمناً طويلاً ، عادا منذ زمن يعدل قرناً تقريباً ، الى اجبارهم على إعادة نظر توشك ان تكون عامةً في النتائج الحاصلة حتى ذلك الحين . وهكذا نفهم ، بصورة أفضل، عند التفكير في ما أكده لوسيان فيفر[1] ، بعد إعادة نظره ، بشيء من الدهاء ،

---

١ ـ مجلة الماورائيات والاخلاق ، ج ١٤ ، العددان ٣ و ٤ ، تموز ١٩٤٩ ، مقال لوسيان فيفر ، نحو تاريخ آخر ، ص ٢٣٥ .

في الصيغة التي تركها لانغلوا وسينيوبوس، قال: « ُيصنع التاريخ من وثائق مخطوطة ، دون شك ، عندما توجد وثائق . ولكنه ُيصنع ايضاً ، ويجب ان نحاول صنعه ، بكل ثمن ، دون وثائق مخطوطة ، إن لم يوجد منها قطعاً ... فكل مـــا يكون من الانسان يتأثر بالانسان ، ويستخدم في سبيل الانسان ، ويعبّر عن الانسان ، ويعني الحضور ، والحيـوية ، والذوق ، والصور الكائنة عن الانسان » ، وكل هذا يؤلف وثيقة للمؤرخ . ومن اجل هذا قال ريمون أرون : « لم تعد المعرفة بالتاريخ قائمة في قصّ ما حدث نقلاً عن وثائق مخطوطة ُحفظت لنـا اتفاقاً ، ولكنها قائمة في ما نريد أن نكتشفه ، مع المظاهـر الأساسية لكل مشاركة تضعنا في حالة تفتيش عن وثائق تفتح أمامنـا المدخل الى الماضي » .

فعدد المتحاربين في ماراطون أو في سالامين لا ُيستخرج من قصص هيرودوتوس أو من مناقشة المؤرخين النقدية ، سواء أهم يونان أم رومان . بل نعرفه من درس حلبة القتال ، وتحليـــل البنية المجتمعية ، ومن الطريقة المتبعة في تجنيـد الجيوش وتجهيزهم ، نعرفه ، ولو بصورة تقريبية لا تتوفر قطعاً في النصوص .

التاريخ والعلوم الانسانية

بين التاريخ ومختلف المسلكيات الانسانية يعترضنا ، إذن ، تماسّ ضيق وتبادل دائم في الخدمات : فالمؤرخ ، أعلى ضـــوء النتائج التي توصل اليها العالم العرقي أو العالم الاقتصادي ، يقدر أن يفهم وثائق الماضي وان يفسرها بصورة افضـــل ، ولكن القصص التاريخي يتيح بدوره لهؤلاء العلماء ان يؤسسوا تأكيداتهم تأسيساً أقوى . ونحن ما نزال في أول الطريق نحو المثل الأعلى، على الأخص في فرنسا ، حيث العناد الاداري في نظام التعليم وفي برامجه ، قد استبقى ، حتى اليوم ، فاصـــلاً قاسياً من مسلكيات مختلفة يعترض الطريق . وهكذا نرى التاريـــخ الاجتماعي والاقتصادي مثلاً ، قد بقي متأخراً قلقاً على الدولة في حين أنه كان في ألمانيا، ومنذ حين في انكلترا واميركا ، ينعم بأكبر قسط من الحرية . فالسوسيولوجيا عندنا كانت تابعـــة للفلسفة ، والجغرافيا البشرية في كلية الآداب كانت تزداد عزلة ، والتاريخ كان لصيقاً بتقاليده ، والاقتصاد السياسي بقي ملحقاً بكلية الحقوق متجهاً نحو صيغ وهمية رياضية لفقدان تمـــاسه بالتاريخ بشكل كاف . ولم تبق من فائدة ترجى الا من الجهـد العنيف الذي كانت تواصله « مجـلة التعليل » لِ هـنري بير ، منذ أوائل القرن . فالمناقشات التي أثارتها ، منذ البدايـة ،

سنة ١٩٠٣ ، بين بعض المشتركين في التحرير ، وخـــاصــة الاقتصادي فرانسوا سيميان ، من جهة ، والمحافظين على التاريخ في مذهبه الوضعي أو اليقيني ، من جهة اخرى ، هي مناقشات بقيت جديرة بالشهرة . أما مجلة المسلسلات السنوية حيث عمل، في وفاق تام ، المأسوف عليهما لوسيان فيفر ومارك بـلوخ في تماثل فكري ، فقد نجحت في أن جمعت حولها مدرسة حقيقية تركت أثراً عميقاً في الحيوية التاريخية في فرنسا .

الوجودية والتاريخ

هكذا انتهى جهد الاجيال الاخيرة ، بطرق مختلفة ، الى ان وضع ذاتية العمل التاريخي في وضح النهار ، ومضى التقدم وئيداً في هذا السبيل حتى تراءى لنا انه من العسير أن تصل الى أبعد . هذا ما جرى في هذه السنوات الأخيرة تحت تأثير التيار الوجودي . وبعد أن انتهينا من ان نلاحظ بأسف ذاتية التاريخ كضعف ، هوذا نحن نطالب بها اليوم باسم الحقيقة التاريخيــة نفسها . بينما كان في الماضي رجل كدوركهيم يطالب الباحث في التاريخ، في عبارة مشهورة، ان يعتبر الوقائع البشرية « كأشياء» من الخارج، فردعلى هذا فيلسوف فتي رداً ما يزال حديث العهد[١] قال : « لا أستطيع أن أضع نفسي في المستوى الذي كانت فيه

١ ـ ريتشي ، مذكرة غير مطبوعة تتناول كياركيفارد والتاريخ .

شخصية تاريخية إلا اذا أحسنت الانتباه الى ذاتي ، فيتراءى لي ذهنياً اين كانت وكيف عاشت ، لا كما يجري للأولاد عندما يكسرون الساعة ليقبضوا على الحياة الكائنة في داخلها ... ولا مثل النظرية الوهمية التي تغيّر الفكرة ، التي يجب فهمها الى شيء يختلف كل الاختلاف ، لكي تُفهم بعد التغيير ... » وذلك لأن المؤرخ الذي يحيي ذكرى هذا الفعل ، أو على الأصح ، يعيد فعله[1] يجب ان يردّ اليه الحياة وان يجعله يحيا في الحاضر وإلا تلاشت الميزة التي يقوم عليها الفعل شيئاً غير عادي بسيط ويحمل اسم عمل » .

وبعبارة أخرى ، يتعرف التاريخ أصالة الانسان التي لا تلتوي أمام العالم الذي يحيط به ، كما يتعرف استحالة فهمه هذا العالم ، بصورة أخرى ليست من الداخل ، تعرّفاً يهيئه الخيال والاحساس ؛ وهذه الحالة من المعرفة تأتي نتيجة لتلاعب الحركة العامة التي تولّدها كل المسلكيات البشرية في المؤرخ . اذن ، كتابة تاريخ حقبة من الزمن تعني بصورة مجملة « وضع المؤرخ نفسه في مكان » الذين عاشوها .

---

١ ـ هذا تذكير اراده المؤلف .

٦ في ما وراء الحدث

التاريخ فاعل لا مفعول

من راقب بعين الاعتبار حالة الحيوية التاريخية الحاضرة، فلا بد له من أن يحس بمثل صفعة تناله من عمق الازمة التي وقعت فيها ، وهي أزمة يجدر بنا اليوم أن نستخلص نتائجها .

أول ما نبادر الى قوله ان هذه الحيوية تُعرف أساساً باسم « بحث » . لذلك لا نشك في أنها لا تتوفـــر الا باستخدام الوثائق ، ولا نتردد في ان نفهمها متناولة كل الآثار ، مكتوبة أو غير مكتوبة ، وهي آثار تركها مرور ناس على هذه الارض التي عاشوا فوقها من قبلنا . ولكن تلك الوثائق ليست بالنسبة الى المؤرخ غاية ، وانما هي وسيلة.فهو لا يجوز ان يبقى امامها مفعولاً إذ « ما من أحد يجرؤ اليوم على ان يحـوّل « دوره »

الى دور آلة مسجلة ، وظيفتها ان تعيد موضوعها بأمانة آلية »[1] .

غير أننا لا نعني بهذا ان نقلل من قيمة تأليف المدرسة « اليقينية » التي وُجدت في أواخر القرن الماضي . فحصيلتها كانت وافرة جداً ، وعلى كثير من النقاط النهائية . فالتمييز بين مختلف مراحل النقد الداخلي والخارجي ، والمؤسسة القيّمة على حسن سير هذه الاشغال ، والطرق المجموعة في نظام ، والتي أصبحت مشتركة بين كل الباحثين ، كل هذه نتائج صارت الى مكاسب . وتقديراً لهذه المكاسب لا نستطيع ان نواجه التهكم والاستخفاف اللذين تمثل بهما ، في كثير من الأحيان ، العلماء « الضائعين في وثائقهم » و « المستعبَدين للطرق الالمانية » ،بغير الأسف الشديد . فالتقدم الذي تحقق فيمفهوم التأليفالتاريخي بما في ذلك الخطوات المماثلة اليوم ، لم يكن ممكناً لولا النتائج التي نحن مدينون بها لكتّاب الماضي .

ومع ذلك ، يبقى ان نذكر بأن مؤرخ اليوم يعلم ، بصورة واضحة جداً ، ان وراء مجموعة الوثائق واجباً يتطلب منه دفع الجهود الى ما هو ابعد من البحث . فهو يريد ان يعرف الماضي نفسه ، ولكنه لا يقوى على إرجاعه الى الحياة ، لذلك يود على

---

١ ـ مجلة الماورائيات والاخلاق . من منطق التاريخ الى الخلقية ، بقلم مارو ، ج ١٤ ، العددان ٣و٤ ـ تموز ـ ايلول ١٩٤٩ ص ٢٤٨ .

الأقل ، ان يكوّن له تمثيلاً يأتي اقرب ما يُستطاع الى الحقيقة التي لا يستطيع الوصول اليها .

هذا التمثيل يأتي مجملاً . ثم لا يلبث هذا المجمل طويلاً حتى تدخل عليه تفاصيل كثيرة وتتركز فيه مستمدة من مصادره . ولكنه من الثابت أن التمثيل الذي استطاعه المؤرخ ، غير تام ، لأن حوادث لا تحصى كانت ، ذات يوم من الماضي ، حياة البشرية ، فاذا بمؤرخ اليوم يجعل ، من قسم مستضعف من تلك الحوادث ، وجده في الوثائق التي في حوزتنا ، مجملاً لذلك اليوم لا بل تمثيلاً له . فكيف يصح أن يحسب مثل هذا الصنيع تاريخاً حقيقياً ؟ حتى مركّب حقيقة الماضي لا يقوى مجملنا المجتزأ على تمثيله . واستزادة في التوضيح نقول: لو أخذنا جريدة يومية ، في أيامنا هذه ، ورحنا نتحرى أن نجد فيها حقيقة يوم تاريخها ومجمل حوادثه ، فاننا نخرج من هذا التحري بخيبة ؛ فما تكون حال المؤرخ غداً عندما يعتمد ان يتمثل الماضي في هذه الجريدة وان يمثله لقرائه ؟ فكرة باهتة تنقلها الجريدة الوثيقة ... وعلى المؤرخ ترفيع درجة التمثيل .

التاريخ تنسيق

صورة الماضي هذه التي نبتنيها ، شيئاً فشيئاً ، يجب أن تكون جدول أعمال ، لأنها صورة انسانية ؛ جدول أعمال

انساني دون شك، يعني صورة محدودة، اذ انها اختيار أجراه تصميم فكري، محدود في ذاته، يعمل في قلب تراكُم غني بالحوادث التي ترهقه. والغاية التي نرمي اليها هي التي تعيّن هذا الاختيار، وهي غاية تفرض ذاتها على الباحث ابتداء من أول معرفة عن الحقبة كذا من الزمان وفي بلد كذا من الدنيا؛ وليس بين كبار المؤرخين من يحاول أن يخفي أهمية هذه الغاية، بل على العكس، يعلنون عظيم شأنها. والى القارىء ننقل ما كتبه لوسيان فيفر «... يضجرني أن ليس للتاريخ تخطيط. بينما نعلم الى أي درجة أمعنت في تفكيرها مدرسة «المسلسلات السنوية» في أن التاريخ حلقات «مسائل». ومثل هذا ما جاء في ما كتب مارّو: «التاريخ جواب عن مسألة مطروحة يتفجر من عمق نفس الباحث». وهكذا انتهى الامر الى فيالاتو فأسمى المسألة المطروحة، التي يفتش المؤرخ عن جواب عنها، «فكرة» بقود التأليف حتى في أدق تفاصيله، لأنها هي التي تتحكم في اختيار ما نودعه مؤلفنا.

وبعد أن يجري الاختيار، يعمد المؤرخ الى تنسيق التفاصيل المتراكمة. فالمسألة وليدة أول امتحانٍ سريع يتناول الوقائع ليجد الجواب عنها اثناء تنسيقها. والحوادث الملحوظة تنسق تبعاً لتسلسلها الزمني، واعادة النظر فيها يؤلف على حد تعريف فولتير: «قصصاً تاريخياً».

هذا القصص التاريخي ، على عكس ما يعتقده المبتدىء أو الهاوي ، ليس مجرد تعداد للوقائع . وحقيقة الأمر أن هنالك عدداً كبيراً من أصحاب النوايا الممتازة ، الذين يريدون أن يكتبوا ما يسمونه « تاريخ » مجتمع عزيز عندهم ، فيكتفون لذلك بأن يستخلصوا ، من مستنداتهم المخزونة ، الوقائع الأكثر اثارة للانتباه . وقد اعتُمد هذا النحو في تأريخ منطقة ، أو مدرسة ، أو تنظيم مهني ، أو أخويات دينية أو غير ذلك . ويحدث أن يهملوا أو ينسوا وضع هذه الوقائع في نطاق أوسع ، فيؤدي ذلك الى سوء الوقوع على المؤثرات التي كانت سبباً في حدوثها . كما أنهم يهملون أو ينسون أيضاً ان يقيموا واصلاً بين هذه الوقائع المتخلعة التأليف ، فيكون ذلك سبباً في إفساد لذة قراءتها لا بل في إحداث جفوة بينها وبين القراء .

ولكن الفائدة المتوخاة من التماسك في السرد ، تفوق كثيراً فائدة القيمة الجمالية . وهذا ما يعلنه واضحاً فيالاتو[1] إذ قال: « كل سرد حكاية يجب أن يكون له « منطقه » ، يعني يجب ان يؤلف « كلا » متماسك الأجزاء المترابطة من الداخل بصِلات توحدها وتجعل منها سياقاً متلاحم الأجزاء ... والحكاية ذات المنطق لها بدء ولها نهاية ، ولها عقدة ولها حل . ولسنا نعني

---

١ ـ بحث غير مطبوع جاءنا من المؤلف ، ومن تقريره هذا نستعير كل هذه الحليات اعلاه في هذه الفقرة .

بهذا قاعدة مطلقة ، لأن البدء له ما قبله والحل له ما بعده . ولكننا نعني ان الحكاية من بدئها الى نهايتها تشتمل على تسلسل حوادث تتوالد في سياق موجّه ... » إذن « منطق الحكاية » هذا ، هو منطق التاريخ نفسه . « فالتاريخ له ، على طريقته ، منطقه القائم في القصد المعنوي منه وهو البحث عن اكتشاف تنسيق لتبعية الأحداث في ما بينها ، ولترابط الجمل ،والدخول الى لـُباب الحوادث الملحوظة التي يرويها » . وهكذا فقط ، نجد حقيقة الجواب عن الأسئلة التي أدت الى بناء التاريخ . ومنطق التاريخ هو شرط فائدته نفسه .

غير ان التأليف التاريخي المفهوم على هذا النحو لا يتم دون خطر . وهذا التماسك في السرد ، أليس المؤلف نفسه هو الذي يدخله في قصصه التاريخي مع أنه ، في الأصل ، غريب عن الحقيقة التي ُيراد تمثيلها ؟ ووجود هذا التماسك السردي نفسه ، أليس دليلاً قاطعاً على ان هذه جاءت مشوهة وبالتالي مزورة ؟ لذا نستطيع القول إنه لم يقدر أحد على كتابة التاريخ دون أن يقع له مثل هذه المآخذ ، كما نستطيع الجزم بأن تجربة الوقوع في هذا الخطأ تهديد دائم ، فالمؤرخ ، عادة ، اميل الى تغليب ذهنيته على مجرى الأشياء لا الى تغليب مجرى الأشياء على ذهنيته. ولكن ما يجب أن نضيفه هو أن عيب المؤرخين هذا ، انما يعني الناس الذين يكتبونه ، وليس التاريخ نفسه ؛ والعمل على

هذا المنوال بعيد جداً عن احترام المسلكية التي ندّعي خدمتها، لأننا نكون ، على العكس ، متمادين في سوء الأمانة . ولقد كان بول فاليري اول المؤاخذين في شكاياته المشهورة ضد التاريخ ، في حين ان كثيرين لم يعرفوا أو لم يريدوا ان يقوموا بهذه الممايزة التي أشار اليها .

بديهيات كتابة التاريخ

مهمة كتابة التاريخ توجب علينا ان نعترف،دون معميات، أنها ترتكز على بديهية ، تعلمنا أنه في مجرى الحوادث البشرية ما هو سهل الفهم ، وان عقلنا يستطيع ان يجتهد في درسها ، مع حظ من النجاح ، متناولاً علاقات التماثل القائم بين مشهد الحيوانات البشرية ، من جهة ، وذهننا من جهة أخرى . ولكن الاقرار بهذا لا يكلفنا اية مشقة لأنه يفرض ذاته على كل الذين يتعاطون التأليف العلمي ، في أي علم من العلوم ؛ فكلها تقتضي في أساسها هذه البديهية نفسها ، والموضوع الذي هو قيد الدرس يعطي اشارة العمل للعقل الانساني ، لأن الموضوع نفسه قد أعدته للدرس عاقلة ما يتعرف فيها عقل الانسان الى ذاته .

وأفضل شاهد لهذا التماثل نقدمه في العمل ، وفي هذا المعنى قال العالم الألماني الفيزيائي هيلمهولتز : « نحن نقول ان تمثيلاتنا العالم الخارجي هي حقائق عندما تعطينا الدليل الكافي على نتائج

افعالنا بالنسبة الى هذا العالم الخارجي ، وعندما تتيح لنا أن نصوغ خلاصات صحيحة تتناول التعديلات التي ننتظرها .

ومثل هذا يمكن أن يستعمل في التاريخ . فهو ايضاً ينطلق من البديهيات نفسها ، محاولاً أن يعطي تمثيلاً لمشهد عالمي ، مشهد الماضي البشري حتى اليوم ؛ وهو ايضاً يعتبر ان الحوادث ذات علاقة بعضها مع البعض الآخر ، ولذلك فهو يستخدم ، في تبادل تفسيرها مبدأ السببية . وهكذا نخلص إلى القول ، في هذا المعنى ، ان للتاريخ قرابة أساسية تربطه بالعلوم ، وأن المؤرخ ، في بحثه عن الحقيقة المجردة وفي طريقة نقده التي يستخدمها ليبعد عنه اسباب الخطأ ، يجبر نفسه على ان يكون ذا ذهنية علمية حقاً .

وفي عودة الى فجر الحركة العلمية الكبرى ، في القرن الثامن عشر ، نجد أن القواعد التي وضعها فونتينيل ، لتكون أساساً للبحث ، ما تزال تلك التي يستطيع استعمالها مؤرخ اليوم والتي تفرض ذاتها توصيات ان لم نقل قواعد مرعية الاعتماد .

أولاً اعتمد تفسير المجهول بالمعلوم ، دون انتحال الحق في الرجوع الى مجاهيل أخرى ، فالوقائع « اعطت سابقاً آلية » المشابهات الى ما كان يسخر منه بوليب . ومن يستطيع ان يقدّر مبلغ التجني على التاريخ باستخدام مبدأ السلالة ، الذي لم يقدر احد ان يفصح عما كان يقصد بمضمون هذا التعبير ، فبقي

كل تفسير له تفسيراً شفوياً؟ وهكذا فعل الكتّاب عندما فسروا واقع جان دارك ، المعين بدقة ، باعلانات تناولت « الروح الشعبية » ، أو « عبقرية السلالة » .

ومن جهة ثانية ، وجب اعتماد بساطة الطبيعية الأساسية ؛ ثم تجنب مضاعفة دخول الأسباب مضاعفة مفرطة ، وفي كل مكان حيث يوحي الواقع ، في الأصل ، بتفسيرات متعددة ، فيجري البحث عما اذا كان أحدها يغلب على التفسيرات الأخرى ، بوصفه قائماً في الأعمق من مجرى الأشياء ، وحتى في قلب المسألة. وعلى هذا الأساس اعتمد فاندريس ، في درسه ، الترجيح التاريخي مادة لاستدلاله العقلي ، حول حملة نابوليون على مصر ، وأظهر بذكاء نافذ كم كان دور المصادفة كبيراً في تلك الحملة ، مؤاتياً بطريقة اقل ترجيحاً أسفار بونابارت ذهاباً وإياباً ، وجاعلاً عملية الثأر قائمة ، بصورة غير متوقعة ، في هزيمة ابو كير . وهكذا نرى أنه بقدر ما نمعن في التفاصيل المصغرة جداً بقدر ما يزداد العجز عن التحديد . ومع ذلك ، أفليس صحيحاً ، في مواجهة هذه الحالة ، ان اعتباراً مركزياً يسيطر على كل الاعتبارات الأخرى؟ أو لا يجب ان نتذكر ان الغزو خلف البحار لا يكون مضموناً لمن لا يسيطر على الأمواج ؟

من التوصية بالبساطة تنتج التوصية بالثقة . فالارتياب النظامي الذي يستَشف لا يُستطاع تخمينه . والحاجة تبدو

ماسة الى براهين ثابتة تؤيد الثقة بمؤلفي المصادر التي نعتمدها ، وكذلك الى ممثلي الحوادث الملحوظة التي ندرسها أخذاً عنهم . أما ان نفترض ان الكتّاب والساسة يستخدمون عادة طريقتين مختلفتين لتمثيل العالم : واحدة لاستخدامهم الخاص والثانية لشارحي ما ألفه هؤلاء ولتفسيره ، فهذا معناه أننا ندخل على دراسة الماضي تعقيداً دائم الخطر . وهذا ايضاً ، وبكل بساطة ، انتحال حق الغاء الوثائق ، متذرعين بأنها كاذبة لكي نحل مكانها رواية الأحداث تبعاً لهوانا وكما يحلو لنا . ومن الطبيعي أن نتشكى من كذب كل من خيّب توقعاتنا . ولكن الأفضل ، غالباً ، هو الرجوع الى ذواتنا للنظر في الأخطاء التي كانت سبب أوهامنا ، ولاستخدام نقد أكثر علمية يمكن ان تجنبنا تلك الأوهام . فالوثائق التي ندينها بالكذب هي ، في الغالب ، الوثائق التي لم نعرف ان نقرأها .

إن تأليفاً يتناول بناء يمثل ماضي الانسانية ، حتى في تفاصيله ، تعصمه من الشك فيه ، على حد قول هيلمهولتز ، القدرة العملية التي يوفرها لنا ، يعني قدرته على ان يتجسد في الوقائع غير المنتظرة ، وهي وقائع معنية قديمة كشفت عنها مصادر ما تزال ، حتى اليوم ، مجهولة ، او هي على العكس من مجرى أحداث اليوم . والواقع الجديد يحاكم مؤلفاتنا التاريخية ، وكل مفهوم عن الماضي يجعل الحاضر غير قابل التفسير او مغايراً العقل ، فيكشف عن

ريفه بمغايرته هذه . وهكذا نرى أن مغايرة المنطق البادية في هذا العالم تغلب البديهية التي عليها يبنى التاريخ ككل علم آخر.

إذن ما قيمة التعليل الذي هذبه التاريخ ، وهو ، بصورة خاصة ، سهل التفتت ، لأنه معرض دائماً للتغيير ، ومهدد بأن يحاكمه المستقبل ؟ في هذا الصدد من الشك والاطمئنان، قال كزينوبول ان الوقائع والاسباب التي يتناولها التعليل « تبقى في موضع التخمين ، ما دامت غير مثبتة » ولذلك فان مؤلفنا يرى ان « ميزة البناء الخيالي في التاريخ هي كل مماثل ببناء التعليل في العلوم ... »[1] . اذن ، هذا تشابه آخر بين العلوم والتاريخ .

ومما تجدر الاشارة اليه ان علوم الملاحظة تقر بالبديهية ، ولكنها ، في التاريخ ، ذات اهمية خاصة. وهي بديهية استمرار نواميس الطبيعة ؛ وهي تعود بالمؤرخ الى الاعتراف بأن الطبيعة البشرية تبقى في قرارتها متماثلة الوجود في مختلف الوجوه على الرغم من التفاوت في التنشئة والثقافة تفاوتاً يجر الى احتمالات متباينة؛وبالتالي نرى ان ردود الفعل والحسابات عند ناس الماضي يمكن ان تدانينا بالتفهم دائماً ، دون ان تكون مماثلة حساباتنا وردود الفعل في ذواتنا. ومما لا شك فيه ان المؤرخ يعيد تركيزها

---

١ ـ مجلة التعليل التاريخي ، العدد ١٨ ، شباط ـ حزيران ١٩٠٩ . « الخيال في التاريخ » ، ص ١٧٥ وما بعدها .

مستعيناً باختباره الشخصي ، وبهذا الاستـدلال العقلي الذي يدعوه كزينوبول « تسلسل المنطق التاريخي » ، والذي عـلى أساسه يُفهم التاريخ؛ فكلما طال عمر التاريخ وازدادت الحيـاة فيه امتلاء بالنشاط والغنى ، كان أيسر فهماً . ومن هـذا الثقل النوعي ندرك لماذا عظم حجم ذكريات بعض رجال « العمل » وبقي بعض علماء المجالس والندوات ، وكأنهم دون أثر يذكر . ويجب ان نذكّر ايضـاً بأن فيالاتو قال ، في مـا يتعلق بالانتفاع بالاختبار الشخصي ، ما يلي : « يجب ان يكون الهدف التاريخي المطلوب الكشف عنه والموضوع المعروف محدودَين ، في بعض اعتباراتها على الأقل ، وفي عالم واحد ، وبين اجزائها مشابهات لا يضرها التفاوت ... وهنا تطل علينا حقيقة لا بد من ذكرها ، وهي ان آثار الماضي تكون أقل مغزى وأثراً في ذات المؤرخ كلما ازداد بعدها عنه : مكاناً وزماناً؛ وهكذا القول من حيث الاهتمام بنوعيتها » . ويبدو واضحاً ، من حيث وجهة النظر هذه ، ان مؤرخ اليوم ، يكبر في مجتمع عقـلاني تعود استعمال المعقولات ، بينما يعاني جهداً نامياً في فهـم قضايا ناس الماضي ، وبالتالي يجهل الحلول التي تقتضيها ، إن كان يعيش في عالم ملكته الآلة . لذلك كل اكتشاف من المـاضي ، يفترض اليوم أكثر من اي زمن مضى ، جهداً في مـا يتعلق بإلغاء

الاقليمية وحتى في اقتلاعه من الحاضر [1]. يبقى ان المهمة لا تفوق القدرة البشرية ، وان هوية طبيعة الناس ، حتى في أبعد الأزمنة عن الأيام التي نحياها ، تتيح للمؤرخ ان يشعر بهذا الجاذب المحبب نحو ناس الماضي شعوراً يفي بالحاجة في تأليفه التاريخي .

هل التاريخ علم ؟

هل يجيز لنا تماثل الطرق التي قمنا بالاشارة اليها ، ان نوافق مؤرخي القرن التاسع عشر في تصنيف التاريخ علماً بين العلوم ببساطة تلفت النظر ، وان نجعله في المنزلة الاخيرة منها ؟ نحن لا نعتقد بأنه كذلك . ولكننا نرى العكس اقرب الى الصواب ، فبين التاريخ والعلوم فارق اساسي يباعد بينهما حتى المعارضة.

فالعلم يبحث ، في الحوادث الملحوظة ، عن المشابهات التي تظهر ، ويكشف عن العناصر المشتركة في الوقائع حيث يتعرفها في حقيقتها ، فيبحث بعد ذلك عن اسباب تكرار هذه الملامح تكراراً متشابهاً في وسط ظروف مختلفة جداً . فيصوغ لهذا الناتج احتمالات تثبت حقيقتها في ما بعد بالاستدلال العقلي

---

١ ـ استزادة للمعلومات في هذا الصدد نوصي بقراءة اول اطروحة بروديل : البحر المتوسط ايام فيليب الثاني ، الفصول التي يصف فيها المؤلف ظروف الحياة في ذلك الزمان .

أو بالاختبار . وهكذا ينتهي العلم الى اثباتات تقرر ميزة عامة او قوانين ، وتجتهد في تنسيقها في نظام .

أما التاريخ فعلى العكس ، لأنه لا يرتبط بالوقائع التي يضع لها حدوداً ، إلا بحكم ما هو موحد بينها . وهذا ما كشف عنه كورنو بقوة لا مثيل لها ، ذاهباً الى حد انه لم يترك للتاريخ ، كحقل خاص به ، إلا فضلة « كل ما يرفض بطبيعته ان يخضع للعقل ، وكل ما ينزل منزلة ما لا حل له في حدود العلاقات الضرورية لوضع نظام »[1] . بلا ريب ، ان التاريخ يبحث عن الأسباب التي كانت وراء تتابعها ويجتهد في جعلها مترابطة متسلسلة ، يعني يبحث عن أن يصل الى تفسير يرضى عنه العقل ، ولكن صفة العلم تبقى غير متوفرة على حقيقتها ، وهذا ما أراده غورفيتش[2] عندما قال : « ان صعيد القوانين وصعيد السببية يبقيان بلا تغطية . فالقوانين يمكن ان تكون رياضية او احصائية ، ولا تؤلف في ما يتعلق بالحقيقة الا ترجيحات ، بينما ان السببية يمكن ان تكون مفردة وفردية وتؤلف تسلسلات لا تخطأ ولا تدحض . فيمكن ، اذن ، ان نبحث عن

---

١ ـ ليفيك ، العنصر التاريخي في المعرفة الانسانية ، على طريقة كورنو ، ستراسبورغ ، سنة ١٩٢٨ ، ص ٤٢ .

٢ ـ الدعوة الى السوسيولوجيا ، باريس ، المطبوعات الجامعية الفرنسية ، ١٩٥٠ ص ٩٠ .

أسباب دون البحث عن قوانين ... » وفي هذا التعبير بالذات تتمثل صفة التاريخ . فهو لارتباطه بالتفرد في جمع الوقائع يمتنع عن اجراء أي اختبار يتناول العناصر المشتركة ليموهها في حوادث مثارة ومختلفة في ما بينها ، باستثناء وضعها الزمني . ولهذا فان التاريخ لا يمكن ان يكون الا سرداً ، فلا يدخله الاستدلال بالشواهد النظرية ولا بالتجارب المختبرية . وأخيراً ، بما أنه يستفرد ليعالج ، مقتصراً على ما حدث مرة واحدة ، فانه لا يعرف الانتهاء الى اثباتات عامة . نحن لا نقول بأن التاريخ يفشل في الوصول الى اثباتات عامة ، ولكننا نقول بأنه يرفض السعي اليها ، وكأنها تجربة تخالف وحيه الحميم ، فيكون مجرد السعي خيانة ذاتية لا يرتكبها مؤرخ جدير بالصفة . والمسلكية التي تمارس صياغة القوانين ، المتناولة علاقات الناس في ما بينهم ، هي علم الاجتماع ، وكل مَن يعنى بهذه القضايا يعرف ان بين التاريخ والسوسيولوجيا مفترق واسع ، حتى ان العلاقات بينهما كثيراً ما تكون دقيقة الصعوبة وغالباً شائكة .

غير أننا في ما قدمنا لا نحلم قطعاً بانكار حق المؤرخ في الانتفاع باعتبارات الاختبار العام ، أو حق بالملاحظات السوسيولوجية في سبيل تحسين فهمه واقعاً فريداً في نوعه ، ولكن الاثبات المتعلق بهذا الواقع الفريد والذي هو عمل تاريخي محض ، يبقي هذا الانتفاع في صفة التدخل كأداة . وكذلك نرى

عادة تحريك الأفكار العامة ، قد اقتُلعت عندنا من جذورها . فالمؤرخ لم يعد يكتفي ، مثلما كان يكتفي في عهود الجهل بجمع الوقائع الفريدة؛بل أخذ يكتب تاريخ المؤسسات والأخلاق،يعني يكتب تعليات هي في حد ذاتها نظرية فكرية . وهو ذا نحن نستعير من ريمون أرون مقارنة له ينظر فيها اذا كان ارتفاع الأجور في سنة كذا أو في العشر سنوات من عهد كذا« حادثاً كلياً بالنسبة الى الحوادث الجزئية التي هو عبارة عن مجموعها » ، ويبقى مع ذلك « حادثاً ... فريداً ايضاً مثل ارتفاع أجر عامل واحد »[١] وبهذه الصفة يعتبر الارتفاع « تاريخياً » .

وفي سنة ١٨٩٨ أخذ هنري بيرين يسخر بهدوء من عـــدد كبير من المؤرخين المدعين أنهم جعلوا من مسلكيتهم علمـاً في حين أنها ليست علماً . من ذلك قوله : « لانغلوا وسينيوبوس في حزن من أمرهما ، وهذا ظاهر في بعض لهجتهما الساخرة التي يعالجان بها التاريخ الذي يريدان أن يجعلاه علماً ، ولكنهما لا يرتفعان به الى مستوى العلوم الحقيقية ، بل اكتفيا بأن اقتصرا في علميته على استخدام ملاحظات ساء انتقاؤهـا ومراقبتها ، فهي عرضة لأن ينبذها عالم فيزياء أو كيمياء نبذاً لا رحمة فيه . وهذا النوع من الصدمة النفسية مألوف عند المؤرخين . ولقـد ذهب التمادي بهذا الهوى الجائش حقاً الى حد دعم زعمهم « أن

١ ـ ريمون ارنو ، مدخل الى فلسفة التاريخ ، ص ٢١٩ .

ما يعملونه » هو علم. والحقيقة ان تشددهم الحاد جاء دائماً بعيداً عن فهمي . فلم تعد المسألة في جوهرها قائمة في تسمية التاريخ علماً أو غير علم ؛ ولكنها في ان نعلم هل ما يفعلونه يستحق الاهتمام به ليُفعل ؟ » .

التاريخ « ميزان » العلم

الجواب ليس مريباً . فلئن كان التاريخ بعيداً عن أن يكون علماً ، فاننا لنجرؤ على القول : ان التاريخ يعارض العلم ؛ فهو ، اذن ، في ما نراه ، معياره الذي لا بد منه. وهذا الرأي يبدو حقيقة بالنسبة الى علوم الطبيعة ، التي يحتفظ لها التاريخ بمعنى الزميل ، وبمعنى ما لا يقع تحت حساب ؛ وهذ ما حدا بـ كورنو الى ان يسمي المعنى الثاني: المصادفة . ان التاريخ لكذلك ، وهنا يبدو لنا الأهم ، في نظرنا ، بالنسبة الى المسلكيات الانسانية . واليكم ما يقوله ، في هذا الصدد فرانسوا سيميان ، مثلاً : « اذا كان من تقارب بين علم الوقائع الاقتصادية وبين اي فرع من الفروع العلمية الأخرى أكثر تقدماً ، قائم على أساس ما ، وله بعض الجدوى ، فان الفرع المقارب يكون ، على الغالب ، علم الأحياء ... ويستبعد أن يكون فرعاً من الرياضيات » ، وأبعد منه ان يكون علم الفلك . فكيف لا نقر بأن هذا القول صواب ، وكيف لا نرى معه على الأخص

ان حياة المجتمعات البشرية هي ما نسميه تاريخها، وأن هـــذا المسمى لا يعيد نفسه أبداً بصورة مماثلة ، والأقتصاد ، ككل العلوم الانسانية الأخرى ، لا تستطيع قوانينه أبداً أن تقدم حساباً عن كل الحقيقة في أدق تفاصيلها . إذن ، التفاصيل هي أكثر الأشياء أهمية بالنسبة الى رجل الأعمال ، لأن العمل هو ، في صدقه ، ضبط الفكر الانساني في ما هو حق ، وان معرفة التفاصيل ، وحدها ، تتيح للانسان حسن التوسل لتدخله في ما هو حق . وهذه المعرفة بالتفصيل ، وبالفريد ، هي التاريـــخ الذي ، وان لم يعطها كاملة ، فانه يقود اليها مع ذلك» .

ومما لا شك فيه ان التاريخ لا يبلغ هدفه أبداً لأن «الهدف الأمثل للتاريخ ، نقره مع غوستاف مونو ، في انه يتمثـــل في اعادة الحياة البشرية كاملة في مجرى تسلسل الأجيـــال ... » ولهذا تجب إعادة رسم « مجمل مظاهر الحيويـــة والتفكير الانسانيين ، متناوَلين في تتابعهما المتلاحق ، وانتشارهمـــا ، وعلاقاتهما في الاستكمال او التبعية » [1] . الانسانية وحدها شخصية التاريخ الحقيقية ، لأن التضامن بين الناس كبـــير الى درجة ان كلاً منهم يساهم في مجموع الاختبار الذي هو حصيلة كل الذين سبقوه ، وكل محاولة ترمي الى ان يُعزل من تاريـــخ البشرية تاريخ جماعة خاصة ، فانها لا تعدو كونها عملية بتر بين

---

١ ـ غ. مونو ، مقالة التاريخ : المنهجية في العلوم ، ص ٣٦٧ .

جماعة وأخرى .

لقد تضخم موضوع التاريخ ، منذ ذلك الحين ، تضخماً لا قياس له الى درجة أنه أضاع كل حد وانه اشتمل على كل معرفة. فعلوم الطبيعة ذاتها يمكن ان تستعرَض فيه ، لا كلوحة تصويرية لا زمن لها مختصرة عن الحقيقة الراهنة كما هي كائنة في خارجنا ، ولكن على أساس النتيجة التي توصلت اليها اليوم ... عة من الجهود المستمرة التي وان خادعت أحياناً ، فانها دائماً متتابعة ، في البشرية كلها . من هنا الميزة المؤقتة دائماً ، ميزة معارفنا التي ستنفتح للتقدم المستقبل جادة واسعة . واذا كان التاريخ السياسي قد بقي ضمن أبعاد ما تزال تجعل منه حقل دروس خاصة مميزة ، فهذا يعود ، قبل كل شيء ، الى التعود الطويل ، ولأن الدولة ما تزال ايضاً توحي الى المجتمعات البشرية وتضعهم في نطاق مختلف النشاطات بفعل ذلك الوحي .

وعندما فُهم التاريخ على هذا الشكل ، بعد ان ضيّع تدريجياً كل هدف مميز ، بدا أخيراً للناظر فيه ، أقرب الى الطريقة منه الى المسلكية ، طريقة أصيلة المعرفة بالانسان ، لا عملاً بقانون نظري فكري ولا زمني ، بل بالملاحظة الفاعلة في المتفرد والمتلاحق ، من كل ما هو معين في نقطة محدودة من المكان والزمان .

٧ مفهوم التاريخ

إذا كان يجوز للمؤرخ أن يستغرق في عناء عمله الى حد أن يجد فيه أفضل مكافأة لجهده الصابر، فانه لا يجوز لنا ان ننتظر من سائر الناس ان يرضوا عن هذا الوضع. ذلك لأن لهم الحق في ان يطلبوا حساباً من المؤرخ عن استخدام حياته، وان يبحثوا في كيف يمكنه ان ينتفع بهذا التراكم من المعارف التي يكدسها دون توقف؛ فلا بد له، والحالة هذه، من ان يفكر في هذا الجهد الذي يبذله، وفي النية التي عقدها عليه، وفي الحظ الذي يمكّنه من بلوغ غايته، وبكلمة واحدة أن يفكر في منفعة التاريخ.

المنطق النهائي للاشياء لا يُستوحى من التاريخ

أمام هذه المسألة، علينا أولاً أن نستبعد الفكرة القائلة اننا نستطيع أن نجد في التاريخ، التفسير النهائي للأشياء،

ونحظى بالجواب عن اللماذا المتسائلة عن الوجود الانساني على هذه الكرة ، وعن عدد لا يُحصى من الحوادث التي يختلط الناس فيها ، ولنُبعد عنا ، خاصة ، الامل في أن هذا الوضع يمكن للملأ ، بصورة جازمة ، أن يتخذوه قاعدة حياتية تفرض ذاتها على المجتمعات وعلى الافراد .

وبعدُ ، بما أن ما يكتبه المؤرخ ليس له سوى توطئات خلاصية ، فحياة الانسانية لا تستطيع ان تعطي من ذاتها قدرة على التعليم ، الا اذا أصبحت معروفة في مجملها ، واذا كانت الرؤية الكلية تعطي مكانها الحقيقي لكل تفصيل . وهذا ، بالضبط ، ما هو مفقود . ثم اننا نجهل ، حكماً ، مستقبل حياة جنسنا ، ولا نعرف ماضيه الا معرفة غير تامة . وليس من شاهد واحد استطاع ان يترك لنا قصة ظهور الانسان الأول على الارض ، ولا أحد يستطيع ان يكتب قصة نهاية أخر حي عليها . اذن ، اية خلاصة ثابتة مقنعة يمكن ان تُعطى ، اعتماداً على نظرات ومشاهد هي في تحديدها مبتورة مجزأة ؟

ولكن لا بد من ان نذهب الى ابعد ؛ فلو افترضنا ان فكرنا ، بوسيلة ما ، استطاع ان يكون في حالة مشاهد مجرى الحوادث البشرية كاملاً ، وان يلمّ بأصل هذا المجرى وصيغة نشأته ، فكيف نتمكن من معالجة هذا الوضع المدهش السعة لنستخلص منه سبب وجوده؟ والتاريخ كالعلم لا يعطينا قطعاً الا «الكيف»

مانعاً عنا « اللماذا » . أما الواقع في طبيعته الأولى ، فليس لنا منه غير الملاحظة . وتفسيره يعني تعيين مكانه في تمثل عالمي ، وإعطاءه أهمية وقيمة ، أخيراً كان ذلك أم شراً ؛ وهذا ما لا يتم إلا اعتماداً على مبادىء أساسية لا يمكن الحصول عليها من وقائع دُرست حين استخدامها لتنسيق الأهمية والقيمة ، وقد سبقناها الى الوجود .

إذاً ، ليس للتاريخ ان يستخلص هذه المبادىء ويصوغ التعبير عنها لتوضع موضع العمل ، ولكن هذا شأن الفلسفة . فالتاريخ أبعد ما يكون عن أن يحل محل الفلسفة ، وان يفرض على الناس حكمة مستخلصة من الوقائع ، لأن الأمر على العكس ، فالفلسفة هي التي تنسق التاريخ وتبنيه ، وتعطيه اللحمة التي يحتاجها . وبلا فلسفة نستطيع ان ننكر وجود التاريخ ؛ ولذلك فان المؤرخ كلما رأى انه ارتفع فوق تتابع الأحداث وتلاحقها الزمني ، يعني فوق ذكر الحوادث المحفوظة اتفاقاً لا اختياراً ، وجد نفسه يعمل ، على طريقة جوردان : يتفلسف دون ان يعلم . لكن الأفضل ، دون شك ، ان يتفلسف وهو يعلم ، ومن اجل هذا كان لا بد للمؤرخ من تنشئة فلسفية قوية .

هذا ما كان دلتي يعلّم ، على اساسه ، قائلاً : « هذا التقديس للأشياء الذي يُخضع أعمال المؤرخين لأعجوبة السحر الكيميائي ، لكي يستخلصوا من هذه المادة الخام التي تتفرد بالذهب الخالص ،

ذهب النظريات الفكرية ، لإجبار التاريخ على اطـــلاق سره الاسمي ، هذا التاريخ المليء بالمغامرات، كحُكم فلاسفة الطبيعة الذين كانوا يفكرون انهم ، بفضل الكيمياء السحرية ، سينتزعون من الطبيعة كلمتها الاخيرة . ولن يستطيع التاريخ ما لم تستطعه الطبيعة ، فيطلق لنا كلمته الاخيرة ،عبارة بسيطة فيها كل معناه الحقيقي » . ومؤرخ مثل مارّو قال قولاً مماثلاً للتعبير عن رأيه : « حقيقة التاريخ هي من اختصاص الفلسفة الـتي يعترف بها المؤرخ ، اعترافاً واضحاً أو غير واضح ... فالتاريـخ لا يستطيع وحده ، وبكفاية من ذاته ، ان يغذي حياة داخلية وثقافة في انسان ؛ ولا يستطيع ان يصبح العنصر المدير بالنسبة اليها ، ولا روحيها ... فهذا الدور لا يقدر على تمثيله غـــير الفكر المتحكم بالنظريات ، ولنقل، دون ان نفتش كثيراً عن معيّن ،غير الفلسفة » .

هل التاريخ خزانة الاسلاف ؟

لكن اذا كان التاريخ لا يستطيع بذاته ان يعطينا شرحاً مجملاً للأشياء ، أفلا يستطيع ، على الأقل ، ان يحمل ، الى عملنا اليومي ، إيحاءات معزول بعضها عن البعض الآخر ، ولكنها ، مع ذلك ، مفيدة ؟ وبعد كل ماتقدم ، أليس في طبيعة الانسان بعض ملامح أساسية معروفة في كل مكان وزمان ؟ وأعماله ألا تُشعر بعواقبها وتعود به دورياً الى أوضاع أصبحت معروفة ؟

جـــاء في الكتـاب المقـدس : « لا جديد تحت الشمس » ، و « ما كان سيكون » . وفي هذا التفكير كتب بينفيل مـا نصه : « ما من فارق في نظرنا بـين آتيان مارسيـل ومجلس المقاطعات ، وبين أيام كابوش ويوم حزيران ؛ فناس ١٧٩٣ ، حتى روبيسبيار نفسه ، أُجبروا على أن يقفوا في وجه الفوضى لأنها أبدية » .

والكلام هكذا يعني رفضنا الأخذ بعين الاعتبار هذه الذهنية « المستفردة » الأشياء ، التي يُحيلها دائماً مجرى الزمان ، وهذا بالضبط نكران التاريخ . فعزل « واقع » من آونة الكون حيث جرى ، معناه اننا رأينا فيه شيئاً قد توقف كل ما حوله وانحدّ ، واننا نستطيع ، حسب ارادتنا ، ان نعيده الى عمق الاجيال لكي ندخله مجدداً بالقوة في الكون الماثل الحـــاضر ؛ وهذا الوضع الذهني ، مبدأ كل تجديد ونهضته وسبب كل خيبة وسقوط ، بعيد جداً عن أن يكون ، كما تراءى لفكر فاليري ، ثمرة العائلية مع التاريخ ، وهو ، على العكس أوضح اشارة الى عقمه من الفكر .

ليس هناك إلا المسألة كما تناولها لاتريل ، إذ قال : « اننا باستمرارنا في تمثل علم التاريخ كمجموعة من « الوصفات » تطبق على الحياة الجارية أو على السياسة العليا ، صالحة للاستخدام صلاح الصيغ المحددة في كتاب مطبخ ، شرط الانضباط الحرفي

في التطبيق ،نحكم على أنفسنا بفقدانها التلاحم الذي لا بد منه بين الأحداث ومؤرخها فالمؤرخون الحقيقيون ما أرادوا قطعاً ان يجعلوا التاريخ هكذا « وصفات » . ولا شك في ان مماثلات كثيرة قائمة بين الأوضاع السياسية او المجتمعية التي يسوقها تحت أعيننا مجرى الحوادث ، ولكنها مماثلات مجتزأة عابرة . وليس في ما يؤذي صحة التاريخ شيء اكثر خطراً من تطويلها أو توسيعها ، فالحس المرهف الذي ننبهه عند استخدامها هو الصفة السيدة التي تسيطر على رجال العمل . فوضع هتلر ، عندما أراد أن يجعل نفسه سيد القارة الاوروبية لكي يفرض ارادته على انكلترة ، يمثل بعض المشابهات بينه وبين نابوليون ، وسياسة التفاهم الهتلرية مع روسيا ليست دون علاقة بسياسة التفاهم النابوليونية التي عُقدت مع امبراطور تيلسيت . وفي الحالتين كان بين أسباب سقوط الرجلين مشابهات كثيرة. غير ان الفارق الزمني ، والدخول في صراع الايديولوجيات الخاصة بعصرنا ، والنسبات السكنية التي قلبت الاحوال المعيشية رأساً على عقب ، والدخول في خط معين مع الولايات المتحدة ، وغير هذه من ظروف جديدة كثيرة ، تجبر المؤرخ على النظر الى المشابهات الحاضرة برصانة قصوى . وهذا ما يحدث دائماً .

التاريخ مصدر التجربة الانسانية

القول الحق ، ان الخدمة الحقيقية التي يستطيع التاريخ ان

يقدمها ، هي شيء آخر . ومن الضروري ان نضيف الى اختبارنا الشخصي اختبار الانسانية ، فمعرفتنا تبقى أبداً ضعيفة ، وعلينا ان نفتح لها حقلاً من الاكتشاف لا حدود له .

والتاريخ ، على حد تعريف احد المفكرين الألمان ، «مجموع الممكنات التي تحققت » ، وهذه العبارة لا تذكرنا فقط بالممكنات التي تحققت والتي لا عدّ لها وتتجاوز كثيراً ما استطاع خيالنا أن يخترعه بنفسه ، لكن يجب أن تنبهنا ايضاً الى وجود ممكنات أخرى الى جانبها تؤلف احتياطياً لا ينضب مما لم تمتد اليه يد مؤرخ ، ولعلها لن تمتد ابداً .

والطبيب ليس سيد تطور عوارض كل مرض . انه يجهل القوانين التي تتحكم في تفاصيله الأخيرة ، فيجد نفسه متألماً أسفاً لضيق معرفته . ومع ذلك ، يحق للناس ان يلجأوا اليه لما بينه وبين آلام الناس من مُناخ أهلي يوحي اليه بالنصائح الشافية ، حتى ولو بقيت علاقته بتلك النصائح قائمة على غير أصالة المعرفة . كذلك نرى أن من واجب المؤرخ ان يوسع في ذاته معنى الانسان ويثبت وجوده ، لكي يصبح في تآلف ومشهد الاعمال الانسانية ، حتى وان لم يستطع هذا دائما .

ولتوفير القدرة على هذا التخلف ، يجب ان يذهب المؤرخ الى ما هو أبعد من المظاهر البسيطة ، فيفهم . ان في العمل الانساني ما هو اكثر قيمة من العمل ذاته : يُفهم ان العمل ، في حد ذاته ،

مليء من الفائدة التي يجنيها الفكر من جراء الحوادث ، كما انه بمظهره التأكيدي للمزاعم التي يستوحي منها مفهوماً لعالم كامل ، يعرب عن انه ، بكلمة واحدة ، اشارة منبهة . وعندما يلقى هذا العمل ، في تحليله الأخير ، الذي أجراه تصميم حاسم قام به انسان واحد ، موافقة شعب ودعمه ، يصبح الاشارة المنبهة للافكار ، والموحية للحضارة في كل مظاهرها ومعانيها .

وأفضل خدمة يمكن ان ننتظرها اليوم ، من درس التاريخ ، هي دون شك أن نتعلم منه تحسين معرفتنا الانسان ، ونأخذ عنه طريقة تتيح لنا ان نواجه ببصيرة نافذة كل واحد من أشباهنا ، فنتعرف أحواله ودخائله التي تفرد بها غب مروره بالاوضاع البشرية الأساسية والدائمة ، والتي هي لكل زمان وكل بلاد وبعد ذلك ، نقوم بالمايزة بين المبادىء والتقاليد المختزنة ، التي تحيلها علينا التنشئة إرثاً للتدارس والتفاوض ، فنكوّن ، على أساسه ، مواطن جيل كذا وبلاد كذا ، وانسان هذه الطبقة ومزاول تلك المهنة .

وهوذا نحن أمام طريقة وليس من جواب ، وأداة شغل ولا « كنز » لاستعمالها فيه : هذا ما يقدمه التاريخ مكافأة لمن نذروا حياتهم له . فعلينا ألا نسخر من ضآلة الربح ، لأن الرصانة في النتائج ، والقانونية في الخضوع للوقائع ، وسرعة العودة الى الاثباتات المعتقد أنها تركزت عندما تضطرنا الى تلك

العودة ، حجج لا تُدحض ، وكل هذه المواقف سمات حقيقية المؤرخ الجدير بهذه التسمية ؛ فهي التي تفرض ، على كل من وجدوا في اشتغالهم بالتاريخ إعداداً انسانياً تعابير متماثلة وكأنها وجه من وجوه القرابة في ما بينهم ، ولنصغ ، مثلاً ، الى مارك بلوك مفكراً في « الهزيمة الغربية » مقدماً لنا ، بشكل ما ، وصيته كمؤرخ : « التاريخ ، كخلاصة ، علم التغير . فهو يعرف ويعلّم ان حادثين لا يعيدان نفسيهما ابداً متشابهين كل التشابه . لكن لا ريب في ان التاريخ عرف ، في تطور الانسانية ، عناصر ان لم تكن مستمرة ، فهي على الأقل طويلة الأجل . نقول هذا اقراراً بالحقيقة غير المتناهية ، تقريباً ، في نماذج الأحداث . وان التاريخ يعترف ، من حضارة الى اخرى ، ببعض اعادات ، لا تماثل خطاً خطاً في التفاصيل ، بل في خطوط توسعها الكبرى . فيلاحظ عندئذ ان الشروط الرئيسية في واقعتين جاءت متشابهة ، وهي تحاول ان تخترق المستقبل . وليست كما اظن غير قادرة على ذلك . ولكن دروسها لا تعدو الاشارة الى ان الماضي يستعيد نفسه ، وان ما حصل امس سيحصل غداً . فاذا ما امتحنا كيف ان البارحة اختلف عن اول البارحة ، كان علينا ان نتساءل : لماذا لا نجد في هذا التقارب الذي يتناول الأحداث ، ما يدعو الى التنبؤ بأن غداً سيكون مغايراً أمس» .

ان لهجة الاباءة المتحفظة هذه ، التي تتراءى فيها كآبة خيبة

الآمال محاولة الاستخفاء جهدها خلف تهكم خفيف ، والتحصن بصمود لا يلتوي ، لهي لهجة جيدة كانعتقد ، لهجة المألوف التاريخي .

ولا نظن ان مارك بلوك ، عندما كان يكتب ، كان خاضعاً لدقة مطلقة في تعيين الأشياء . اذ كان يستعمل العبارات في المعنى الذي يُعطى لها غالباً في مجرى المحادثات . واننا لا نشك في انه كان يعرف الضرورة التي تقضي بأن لا يخلط بين التاريخ والمؤرخ . فالتاريخ على حد قوله الصريح ، لا يعلّم شيئاً . واذا خرجنا من هذا المفهوم ، لا نجد أمامنا في كتب التاريخ غير تأكيدات المؤرخين . غير ان هؤلاء لهم الحق ، كغيرهم من الناس في ان يفكروا في النتائج الحاصلة اعتماداً على مسلكيتهم ، وان يستخلصوا منها تقديراتهم المسبقة ، ولكن لا يجوز ان ننسى التفكير في التاريخ يعني الخروج منه ، وبالتالي البعد عن التأليف التاريخي المحض .

التاريخ وفلسفة التاريخ

ما معنى التاريخ؟ الجواب عن هذا عند الفلاسفة . وسواء أكان يقود الحوادث عقل يتجه بها نحو هدف ، أم كان العكس ، تعطيل عمل العقل ، فالمؤرخ لا يكرس نفسه لدراسة التاريخ ان كان مؤمناً بتمرد هدفه على متناول العقل ، على الرغم من تحسسه هذه الأسئلة التي يقيّم وجودها دائماً . ولكن لقبه « مؤرخ » لا يؤمّن له اية سلطة .

غير ان مرور الزمن المتطاول يجيز لنا ان ندفع عجلة التاريخ الى الامام في بعض الاتجاهات . ونحن نشهد اليوم اكثر من كل يوم مضى ان مجرى الحوادث ، منذ قرنين او ثلاثة ، انتهى الى الدخول بالبشرية كلها في مسرحية مثيرة واحـــدة ، وهكذا يصار الى تحقيق وحدة الكرة الارضية . ولكن هل نستطيع في خلاصة هذا الواقع ان نصدر حكماً يتناول قيمة التاريـخ ، ونجاذف بالتكهن في العواقب ؟ عن هـذا أجاب ريمون ارون ، قائلاً : «لو ان الغرب اليوم ما يزال مؤمناً برسالته لكان كتب ... تاريخاً كونياً يظهر فيه ، ابتداء من المغامرات ، التصاعد المطرد في كل مجتمعات المدنية الحاضرة . وهـذا امر غـــير ممكن ، لأن أوروبا لم تعد تعرف ان تفاضل بين ما تجود به وبين مـــا تحتفظ به ... فالانسان أصبح يخاف فخوخه ، وأدواتـــه ، وعبيده ، والعلم ، والتقنية ، والطبقات ، والسلالات الدنيا » .

إذن ، كيف العمل للوصول الى ما هو أفضل ، فـنرى ان معنى التاريخ تابع للفلسفة التي بواسطتها نسأله ؟

منـــذ اكثر من قرن والمؤلفون يدعون أنهم وجدوا قانون الحركة التاريخية ، وان في استطاعتهم ان يتنبأوا للانسانيـة بحدود تلك الطريق . وهذا ماركس رأى في الماديـة الجدلية محرك كل تاريخ وقد أوضح للانسانية الصيغة التي ارتآها في النظام الاشتراكي . ومن بعده جاء توينبي يشرح تقـــدم الحوادث ،

واصطدام الحضارات التي ذاب بعضها في اثر البعض الآخر ، في بوتقـــة الحضارة الغربية الكبرى . والمؤرخ يقتفي باهتمام سير هذه المحاولات ، ويستبقي عدداً كبيراً من شروح التفاصيل . هذه الشروح التي استحقت اهتمامه بما ألقت من ضوء على بعض سياقات وقائع كانت حتى ذلك الحين مهمـلة ، بمـا حملت من مشاركة في جلاء الماضي ، لأن الماضي الانساني لا ينضب نبعه . والمؤرخ نفسه اذا ترك اشتغاله الجهد بالتاريخ كمهنة ، يستطيع هو ايضاً ، ان ينصرف الى اكتشافات مماثلة يكون مخرجها هو لا سواه . ولكن هذا المكتشف يبقى، اكثر من سواه ، متمسكاً بالمايزة بين الوقائع الحاصلة والافتراضات المفسرة ، وبين التاريخ وفلسفة التاريخ ، وتكون وظيفته الأساسية أن يذكّر دائمـا بأنه ، لكي نقوم بالاستدلال العقلي في التاريخ ، يجب ان نعرفه وان نأخذ عنه مثلاً ، درساً في الرصانة . فنية المؤرخ ، في عمقها ، ليست في عرض لوحة مصورة أمام الفكر ، تأخذ الناظر اليها باغراءاتها في عرض ماضي الانسان ؛ بل يجب ان تكون متواضعة وطموحاً في وقت واحد ، لأنها ترمي قبل كل شيء ، الى تقوية سلاح معاصريه لمعركة العمل ، يعني لبناء المستقبل . ولذلك كان الضوء الذي ينير طريق المؤرخ ، في أقصى ما يتناول من ابعاد الماضي ، هو ضوء الاهتمام بالمستقبل .

فهرس

منشورات عويدات٢٦٧/١١/١٩٧٤

Joseph HOURS

VALEUR DE L'HISTOIRE

Traduction Arabe
de
Nassim NASR

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Paris